# البنيوية في المشهد النقدي الأدبي الأكاديمي الجزائري المعاصر، قراءة أبستمولوجية في الغايات والأصول.

بوزيان بغلول(*)

**الملخص**: ترغب هذه المقالة المقاربة للمقالة العلمية التماس البحث عن إجابات مُقْنعة للسؤال التالي: لماذا تتجه معظم البحوث النقدية الخاصة بتحليل ودراسة المنتوج الأدبي الجزائري سواء كانت بحوث أكاديمية ـ بما في ذلك مذكرات التخرج ـ أو أبحاثا مستقلة إلى المنهج البنيوي؟ ذلك المنهج الذي اصطُفي عربيا وغربيا في سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي الوقت الذي بدأ يهوي خارجا رويدا رويدا من اهتمامات الفكر الغربي متبوعا بالفكر العربي في المشرق العربي بخاصة في مجال التخصص الذي نحن بصدده، أي النقد الأدبي فاسحًا المجال للمناهج الما بعد بنيوية كالتفكيكية والهيرومنطيقا وحتى فرع السيميائية/العلاماتية المسمّى بسيمياء الثقافة. غير أن دراسة إحصائية إعلامية اطّلعت عليها مؤخرا تؤكد أن البنيوية مازالت من حيث الكم هي المسيطر على الساحة النقدية الأدبية في الجزائر، ليس ذلكم فحسب بل من مصادفاتي لعديد الدراسات النقدية النظرية والتطبيقية البنيوية الأكاديمية عبر الإعلام الإلكتروني أصحابها جزائريون أو مغربيون. فإلى ما يعود السبب الحقيقي يا ترى؟

**الكلمات المفتاحية:** البنيوية، الموضوعية ـ الذاتية، الإبداعية، العقلانية، المادية.

**المقدمة:** يهدف بحثنا نقد ومناقشة مغزى تطبيقات النظرية البنيوية على النقد الأدبي، بالبحث عما يقابل أيديولوجية العقل الأداتي، والتقنية والمادية وخاصية اللا معنى وكلها من مرصدات النقد الثقافي سليل مدرسة فرانكفورت النقدية، وأن كلاهما المناهج البنيوية والنقد الثقافي ليسا نظرية نقدية فلسفية بحتة بقدر ما هما مرحلة من مراحل إبستمولوجيا المعرفة التي تخص النظرية النقدية، وهذا كله من أجل تفادي مزالق منهج نقد النقد التجزيئي؛ فالتركيز على النظري دون التطبيق قد يسِم البحث بعدم مصداقية الطرح، ففرضية غياب الدليل العملي المؤيد بالنظرية هو اللاعقلانية نفسها التي هي موضوع بحثنا ومنهجه في نفس الوقت (في حال

طرحنا فرضيات قد تلتبس بالحكم الجاهز على غرار حكم "عدم موضوعية منهج البنيوية عندنا أكاديميا" جراء ما يفرضه من أيديولوجيا مكرسة "للأداتية" والعقل المادي التجريدي ثم لا نثبت ذلك عمليا) ثم هل نقتصر على تطبيقات البنيوية بالتركيز على الهفوات التطبيقية أم نجرُد القواعد النظرية بحثا في الأصول والغايات والتي وحدها تتطلب دراسة؟ فالبحوث العلمية القصيرة في نقد النقد غير ذات جدوى علمية لأنها إمّا أن تخلُص إلى الاجتزاء أو إلى السطحية جراء تركيب الدراسة النظرية في الدراسة التطبيقية وأحلاهما مر. والدراسات الأكاديمية الجزائرية والمغربية التي سننمذج لها أسفلا دائما وأبدا وإحاطةً بالمنهج من كل جانب (نلتمس الإحاطة الخلل البيّن المرتبط بالمنهج بشكل أو بآخر) تضع نصب عينيها أهدافها التي هي التعمق في تحليل النص لاستخراج دلالاته وانعطافاتها الجمالية الكبرى أو الشاملة، وتسهم في سرد كذلك الأصول المعرفية للمناهج البنيوية: سواء بنيوية شتراوس أو بارت أو بريمون أو سيميائية غريماس أو أسلوبية جيرو من دون مناقشتها كأنها قرآن مجيد. أما بحثنا فيتعرّض لهذه الأصول وهذه الغايات بالمناقشة والقراءة الإبستمولوجية من خلال ما يعرضه هؤلاء الأكاديميون عنها، إفصاحا عن مكامن الخلل.

إذن لن نسوق التعاريف ـ طبقا لمنهج البحث ـ ولأنها أيضا متاحة بشكل وافٍ عبر الشبكة العنكبوتية ومدعاة لتكرار ممل للدرس النظري لكن نبدأ من نموذج تطبيقي** ثم نعود من خلاله لنعرج على نشأة البنيوية structuralisme كمدرسة نقدية حداثية تعود أصولها المعرفية إلى نهاية القرن 19 وبداية القرن الـ 20 في خضم ما عرفته الفلسفة المثالية والمادية آنذاك من محاولات حثيثة لترسيخ قدميهما وعزل علوم الميتافيزيقا والعلمانية الإنسانية مستزيدةً من تطور العلوم التجريبية والوضعية التحليلية، حيث كانت لأعمال ماركس ودي سوسير وفرويد في فلسفة التاريخ والنحو المقارن وعلم النفس على التوالي الأثر الأبرز باتجاه تبلور نظرية أدبية حديثة، وفي علوم اللغة والنحو المقارن نهاية القرن 19 بدأ يُخضع ظواهره اللغوية أول ما بدأ للمنهج العلمي التجريبي على يد أوجست فيك August Fick ثم دي سوسير أسوة باللغوي الألماني Von Humboldt الذي اهتم بعلاقة اللغة بالفكر وأسوة بالمورفولوجيا الاجتماعية على يد أوجست كونت وإميل دوركايم حين دعا إلى النظرية المسماة "العقل

الجمعي"، وبدراسة الظواهر الاجتماعية باعتبارها "أشياء مستقلة"، وكليهما **نحيا منحى الفلسفة التجريبية عند أهم ممثليها (جون لوك ودافيد هيوم) التي ترى أن التفكير يجب أن يستمد عناصره الأولى من الحس والتجربة، وبذلك استبعدت كل القضايا الميتافيزيقية، واهتمت بقضايا المجتمع والحياة، وقد طبق هؤلاء مناهج هذه الفلسفة على الأدب** على نحو قسري **عندما حاولوا وضع قوانين للأدب كقوانين الطبيعة، وفسروا الأدب تفسيراً** علمياً مادياً محضاً..[1]

ولا بأس أن نرى قبل ذلك كيف أن هذا الطالب الجزائري في مرحلة الماجستير أو الدكتوراه الذي يقول في بحثه الأكاديمي: «**يعتمد كثير من النقاد في تحليلهم للنصوص الأدبية على بعض الظواهر الشكلية، أو يتجهون بها خلف معطيات وتفسيرات نفسية أو تاريخية أو اجتماعية أو حتى مذهبية مما يجعل هذه النصوص تعيش خلف أسوارها.**

**إنّ هذه الدراسات الضّيقة التي لم تتعمق في أغوار هذه النصوص لاستجلاء مكامنها الجمالية والإبداعية تعتبر معالجات وتفسيرات ضيقة غير ناضجة لا يمكن لها أن تفجر ما تنطوي عليه المعاني والعبارات.**»[2] معتقدا أن المناهج السياقية لا تتعمق في أغوار هذه النصوص لاستجلاء مكامنها الجمالية والإبداعية! بل أنها تفسيرات "غير ناضجة" ولا ندري ما يقصد بالضبط بعبارة "غير ناضجة" لكن بحسب فهمنا هو يقصد افتقاد هذه الدراسات النقدية للدقة العلمية الموضوعية كنتيجة لتوخي المناهج السياقية لهامش من الذوقية أو ذلك البصيص الذي لا بد منه من الذاتية؛ فالذاتية في الأدب هي علميته والإبداعية الحقّة شرط أن تأتي مكمّلة للإجراءات العلمية وهذه الأخيرة مكملة لها؛ لِما تنطوي عليه من تفجير **لمكونات** النص أفقيا باتجاه الحياة النفسية للمبدع وعموديا باتجاه بيئة المبدع وزمان الظاهرة الأدبية وإنما يعني بمكونات النص إجمالا: إنما الأدب ليس هو ـ وجدليا ونضع خط تحت معنى كلمة جدليا ـ العلم بالعلم (الإجراءات) لكن هو العلم بالكامن من التعبير اللغوي كونه تعبير منفتح على أفق عير محدود من الجمال ولا يمكن عندئذ القول بأننا درسنا أو أدينا حق هذا العلم إلا بممارسته بهذه الطريقة (كعلم نسبي لأن طبيعته تتطلب ذلك) أي إنْ لم يكن كذلك فهو ممكنات إجرائية تعددية لمعنى النص في إطار محتمل نقدي إذن تعسفية؛ لا تختلف عن باقي العلوم لمّا تهتم

بموضوعاتها ولا تُعير اهتماما للتعبير وجمالياته، وهي **مكنونات** لا تترك جانب له صلة به إلا وحلّلته بما يقوي عمق النص وليس سطحيته، في مقابل المناهج البنيوية التي تقول نظرياتها أنها تتعامل مع الأشكال واللغة مفجرةً طاقاتها وحمولاتها الدلالية **في حدود الممكنات** كما يصطلحون أي الضرب بعرض الحائط بالمفهوم الجدلي للأدب. لكن هذا لا يمنع من أن يكون المنهج البنيوي مادام علما "ماديا" صالحا للتطبيق على مختلف العلوم المادية والاجتماعية.

ولعل تلكم الذوقية هي التي تميز الأدب عن سائر العلوم، وتهميشها عنوة هو عدم نضج صاحبها الأدبي والنقدي لأن النقد يتبع الأدب، بالرجوع إلى الأصول المعرفية الفلسفية للنقد الذي يمتح من مدرستين مختلفتين تكرسان الاختلاف في هذا الجانب وهما المدرسة العقلانية والمدرسة الأنجلو سكسونية ذات التوجه الفلسفي التجريبي، بالتالي هذا التهميش هو من يقف وراء ضعف الأدب الجزائري بل وتجعله مع "العلمية الانتقائية" مُضاعف الضعف:" **فإذا انتقلنا إلى العلوم الإنسانية التي يسعى النقد الأدبي منذ أكثر من قرن من الزمن للانتساب إليها، وإن كان قد ضل الطريق بسبب النزعات الوضعية لرواد هذا الطموح، فإننا سوف نجد أن حساب دور الناقد، تدخله الأيديولوجي (الذي يحكم انطباعاته وتحيزاته) هو أمر ضروري، ولابد من الاعتراف به، وإن عدم الاعتراف به هو نوع من نفي موضوعية العملية البحثية**"(3) على اعتبار هذه الجدلية بين ما هو مادي ومعنوي قامت وضعية خاصة بهذا العلم الذي ندعوه علم النقد الأدبي وهي عقلنيته المرادفة أيضا للتنظير والتشذيب مع تاريخ التغير الثقافي المستمر مثل ما يقول حسن حنفي في كتابه مقدمة في علم الاستغراب: أصبحت وظيفة العقل الأوروبي تحويل كل شيء إلى عقل حتى لقد اعتبر ماكس فيبر وهوسرل التعقيل أو التنظير إحدى السمات الجوهرية للوعي الأوروبي يتميز بها عن غيره من الشعوب.

## 1. كيف تعاملت البنيوية مع جوهر النص الأدبي؟:

لكن ما فائدة تلك المعاني وتلك الدلالات والتي لا أدري أيستشفها الناقد الجزائري عن ذوق لمَّا يطوف داخل بنية النص ومستويات العلائق ووشائج القربى التي تربط عناصر اللغة تلك كمستويات الزمن وتقنيات الاسترجاع والحركة السردية وهلم جر؟ أي هل هناك ما يدل على الجانب الإبداعي؟ هنا يكمن مربط الفرس؛ في استيفاء المعنى الجميل/الفني وليس مجرد

آليات الدلالة الصماء التي تقود إلى إجراءات الدلالة لا ماهية الدلالة الطامسة للذوق وما يربطه بجماليات تستوفى من النص ولابد؟ كما يحاول سعيد بنكراد إيهامنا به، غير مفرق بين النص الأدبي وغيره من النصوص بقوله: " **وعلى هذا الأساس فإن غاية أي تحليل** (مقاربة النص بنيويا) **هي مطاردة المعنى ورده إلى العناصر التي أنتجته، وتبعا لذلك، عوضا أن يكون الأثر الجمالي قوة حدسية لا يتحكم فيها ولا يحدد حجمها سوى الذات المتلقية، فإنه سيتحول الى عملية تحليلية تستند الى العناصر النصية بانزياحاتها وتقابلاتها وتماسكها**"[1] لأن المنهج البنيوي على موضوعيته يشترط تحليل بنية النص تحليلا وتركيبا لعناصره، ليس بمقدوره التغاضي أو رد علائق تجبر الحواس وتدفعها إلى تذوق ما يفوح من عبير تلك البنية، أو هو الحدس بتعبير صلاح فضل، لأنه بصدد خطاب أدبي لا خطاب تواصل لساني: " **(..) منهج البحث العلمي للعمل الأدبي يحتاج في أحد حلقاته التي لا غنى عنها إلى هذا الحدس ، إذ أن التحليل العلمي لجميع العناصر التي يتكون منها العمل الأدبي مستحيل، لأنها مركب لمجموعة من المركبات المعقدة والحدس وحده هو الذي يدلنا أمام العمل الأدبي على الجانب الذي يتسم بالخصوبة**"[4]، هناك من ألغى البنيوية ورفضها من أساسها كعبد العزيز حمودة لاعتبار أساسي هو أن الأدب ليس دلالة شكلية بل الأدب معنى جميل ودلالة جوهرية تُطلب لذاتها (ماهيتها وليس إجراءاتها البنيوية) وأنا أؤكد هنا على كلمة جميل حتى لا يُفهم أننا نُلغي الحداثة وعلمنة النقد والأدب **علمنة نسبية***، **صحيح أن العلم لا هوية له لكن الأدب الذي لا يحمل هويته الخاصة لن يكون أدبة حقيقية، لذلك نستطيع أن نعد النقد الأدبي نشاطا فكريا وذوقيا عليه أن يأخذ من العلم ما يطوره، ولا يؤثر على هويته كي لا يبدو صورة عن نقد أو فكر الآخرين (..) وذوقهم، خاصة أنه يتعامل مع نص أدبي يحمل بصمته الخاصة به، التي لا يمكن أن تجعله صدى الآداب الآخرين[5].**

وحتى نُبعِد عنا أيديولوجيا من يشترطون بحثا عن ذلك المعنى الغايات الدينية الغير حداثية، وعبد العزيز حمودة كان علمانيا وأساتذته علمانيون أمريكيون؛ فهو يرى أن الموهبة والقريحة سُوِي بينها وبين اللا موهبة واللا قريحة تعسفا من قبل البنيويين فأدرك الضعف النقد والأدب

[1]. سعيد بنكراد (2011)، السيميائيات السردية مدخل نظري، الرباط: منشورات الزمن، ص10.

مع البنيوية لأنها أهملت الجوهر وهو توصيل المعنى بجمالية وقد ساءت البنيوية بفروعها كالسيميائية والأسلوبية البنيوية ولم ترُق كثيرا ـ من هذا الجانب جانب جفاف الروح الإنساني ـ كلاً من محمد مندور وغنيمي هلال وشكري عياد، إذ يقول هذا الأخير: هي في نظري مذاهب تمثل جفاف الثقافة الغربية ولا تمثل الثقافة الغربية في ازدهارها ونمائها، متابعا قوله بالحرف الواحد أن المغرب العربي ولبنان كانا أوثق اتصالا بفرنسا والغرب لكن مصر تمتص هذه الأشياء (يتحدث عن البنيوية كفلسفة ومنهج نقدي جديد في ذلك الوقت) ثم تعود إخراجها بشكل عربي يقبله كل العرب، ويعطي مثالا عن المنفلوطي الذي هو تلميذ جبران، لكنه امتص رومانسية جبران وأعاد صياغتها بشكل عربي فاصبح مقبول في لبنان والمغرب أكثر من جبران، أما الفيلسوف الأديب زكي نجيب محمود فيشاطر شكري وحمودة عندما يقول في أن النقد ليس بالعلم لكن فيه روح العلم مع الذوق الشخصي(6)، كل أديب ـ أيًّا كان مجاله الأدبي (الشعر أو القصة أو المسرحية أو غيرها من فنون الأدب) ـ يعيش تجرِبة وجدانية فريدة لا تتكرَّر له مرةً أخرى، ولا يعيش فيها سِواه، وعليه أن ينقل تلك التجرِبة إلى الناس بتشخيصها وإحياء أبطالها على الورق. أما عن المؤلف بصفته فيلسوفًا، فهو أحد المنتمين إلى المدرسة التحليلية، وبالتحديد التجريبية العلمية المعاصرة، ومذهبُه في الفلسفة هذا مرهونٌ بعمل الفيلسوف الذي لا يكون إلا بتحليل الفكر الإنساني.

وطبعا لم يجرؤ أحد من نقاد المغرب العربي على طرح هذا الإشكال لأنه يعوزهم تاريخيا ذلك المعنى الجميل في مدونتهم الأدبية والنقدية مقارنة بالمشرق العربي، وهو ما حزّ كثيرا في نفوسهم فيسخرون إثر ذلك "علمية نقد النقد" لضرب ذلك التنظير، بل تحايل تلامذتهم وتطاولوا على موقف حمودة واعتبروه حاملا لفكر أصولي! ومن وعى منهم متأخرا وجد أنه يضرب جوهر الأدب، ليتأخر عن ركب المشارقة الأدبي والنقدي سنوات أخرى عدة. وقد عرفت الصحافة المصرية طيلة القرن الماضي شيئا اسمه التنظير (نقد النظرية النقدية الجديدة وليس نقد النقد الأدبي) وقد بلغ مبلغا عن طريق التنافس بين النقد الصحفي والنقد الأكاديمي وهذا مالم يحدث في الجزائر، **ففتحت الأبواب على مصراعيها للنقاد من رافضي البنيوية والحداثة من الاتجاهين، فهناك من انتقدوا أغراض شعر الحداثة، وهناك من رفضوه متعللين بافتقاد**

**مبدعيه للموهبة، وهناك من اعترفوا بقصيدة الشعر الحر، لكنهم لم يعترفوا بشعرائها بعد صلاح عبد الصبور، بينما حاول البعض أن يضعوا أسساً لقبول البنيوية أو النقد الحداثي من جهة ارتباطه بالجذور، وهناك من تسلل لمهاجمة البنيوية عن طريق اللغة، وهناك من النقاد من أكدوا أنهم لا يعادون الحداثة، لكنهم انتقدوا ما يرونه سلبياً فيها مثل كونها مستوردة من الغرب، كما احتل الغموض مقدمة الاتهامات التي أخذها النقاد والمبدعون علي شعراء الحداثة، وهو أكثر ما أُفردت له المقالات وبُسطت له المساحات، ولم تترك باباً دون استغلاله لمواجهة الحداثة، فانتقدتها وأبرزت سلبياتها عن طريق المقالات والحوارات والتحقيقات وقصائد الشعر(7).**

ثم أن الحضارة العلمية الغربية في شقها الأنجلو سكسوني لم تنحو ذلك المنحى المطّرِد التطور دون أن تنظر إلى الفكر المادي من جانب ما يحققه من فائدة على أرض الواقع، وما دمنا بإزاء منافرة بين الفلسفة/الثقافة المادية الغربية والثقافة الروحية العربية* التي أنموذجا المناهج البنيوية لا بد من التأكيد على معايشة الواقع أو التجربة أو التطبيق العملي في الحياة كقاعدة أنطولوجية كونية عامة، "**وربما كان علم اللغة هذا، من الناحية التاريخية فصلا مبدئية للنظرية عن التطبيق. وقدم النموذج لذلك علم اللغة الدي سوسيرى من خلال جنوحه إلى فصل اللغة عن الكلام بعضها عن بعض فصلا صارما لوصف اللغة بوصفها نظاما تزامنيا مجردا، خارج الزمن والتاريخ، وقد أثارت هذه الهوة الأساسية الحادثة عن ذلك بين النظرية والتطبيق في العقود اللاحقة مشكلات عسيرة كثيرة، وقد افترضت فقط إمكانية وصف هذه اللغة المجردة حقيقةً. ولم تنشأ آنذاك أدلة مقنعة على أن هذا النظام يوجد في شكل يمكن اختباره تجريبيا على نحو ما. ولذلك طرح علم اللغة الدي سوسيري بشكل إجباري لتكوين/ لبناء «اللغة» ذاتها، وذلك من خلال تضخيم نظري محض**"(8)، خذ الغرب مثلا لم يتعجل مسيحيته إلا بعد مُضي قُرابة الخمسة قرون بينما العرب بسرعة البرق اتخذوا الإسلام، أولم يكن الأجدر بهم يتركوه للواقع كذا من قرن قبل أن يأخذوا به صنو أقرانهم المسيحيين واليهود؟ وبهذا الصدد يقول الكاتب والإعلامي زياد بوزيان:" **شتّان بين قواعد النظرية المجرّدة وظروفها**

**الباعثة على الراحة والطمأنينة لدى الباحث، أي باحث وليس الباحث العربي فقط، والواقع العملي وظروفه الباعثة على القلق والشك الدائمين في تاريخ الفكر الإنساني كله"**[9]

والخلفية المادية للنظرية البنيوية في النقد الأدبي تجعلها ليست بذي فائدة تذكر سوى بالتمكين للمنطق المادي أي تحصيل فائدة من التطبيق على العلوم والنصوص، وبالتطبيق والممارسة وحدها، والواقع وحده هو الذي يدحض هذه النظرية العلمية وليس شيء آخر، فالنظرية شيء وأرض الواقع شيء آخر، لذلك تحتل خبرة أو تجربة الواقع في اللغة (ذات الارتباط بالمجتمع) أهمية قصوى تفوق جميع العلوم، فتجربة في الجيب بالنسبة للمتعامل مع علوم الأدب والنقد خير من مليار نظرية، والمجبول على لغته وإن كان يخالف أشخاصا آخرين ثقافيا فإنه بالنسبة لجماليات اللغة وشعريتها سيلتقي بهم حتما في جانب من الجوانب، ففي التجربة مع اللغة وعلى اللغة الخير كله وإلا الشر كله وهي تحصيل حاصل لنظرية اكتساب اللغة تبع نعوم تشومسكي Language acquisition device theory حيث هناك جهاز قبلي غريزي يكتسب اللغة في الإنسان لكنه مقترن بسن الطفولة الأولى، فاذا ما فاتت هذه المرحلة يصعب معها التحكم بأبجديات اللغة بالوجه الأكمل حتى ولو اضطر شاعرنا مفدي وخطيبنا الإبراهيمي إلى التعويض بتعلم القواعد والعروض وحفظ أشعار العرب في الزيتونة والأزهر عمرهما كله، أما ذلك الذي جاء إليها كي يحفظ أو يسترزق بمعونة التملق أو يعظ فإنه سيكون عالة عليها وعلى المنتسبين الحقيقيين إليها، وهي (اللغة) المحك الحقيقي للبلاغة وهاته الأخيرة بدونها لا أدب ولا شعر ذو مستوى ولا نقد حتى (وفي وجود الموهبة والمخيلة الفنية أحيانا والضرورية)

فإذا كان الناقد حمودة نحى باللائمة إلى تنصُّل المُنبهرين من بني جلدته من تراثهم البلاغي والسردي ظاهرا في شكل أزمة عدم توفيق بين الوافد الجديد والتراث القديم، فنحن ههنا ننحي باللائمة على بني جلدتنا الجزائريون أنهم تشبثوا بالوضع الانبهاري الصّرِف المُقنَّع إذْ لم يأخذوا بالحالة المصرية كعبرة ليس صيدا في المياه الراكدة فحسب بل لأن المدونة التراثية البلاغية والسردية مفتقدة وهي كذلك ماضية كتحصيل حاصل لإمّحاء اللغة العربية من ألسنة الفاتحين الأوائل تدريجيا لأسباب عدة يضيق بها المقام (فمن جهة اللغة العربية، أدبها بنقدها، هي

تشكّل هوية وهي متحركة أنطولوجيا صنو الأشياء المادية والمعنوية فمن غير المعقول أن لا يُلم المنتسب إليها بتطور تاريخ تلك الهوية، أي لا يستقي من التراث البلاغي والنقدي الموجود في العربية كي يهتدي إلى مآل النقد الأدبي الراهن، وعصر النهضة العربية زاخر بالنقد والأدب الرفيع الذي يهمله النقد المغاربي المعاصر عنوة (بذريعة التقليدية) وهو يدخل في تلك الهوية، ولقد وصل بنا شخصيا إلى التماس فضائح أساتذة تخصص مناهج بنيوية وأدب مقارن في قسم اللغة العربية في جامعة الجزائر 2 بحيث يستطيع تلامذة الكتاتيب بسهولة أن يفضحوهم نحويا ومعجميا. ولعلّ ذلك ليس راجع إلى عدم توفر شروط اكتساب اللغة في الصغر فحسب بل يرجع أيضا إلى نهجهم ثقافة ممالأة بعضهم بعضا، والمراوغة والاحتيال قصد نيل الشهادة الورقية، وهذا ما يُفهم من قول فنسنت ليتش بأن المؤسسات الأكاديمية الرسمية حصرت الممارسات النقدية داخل إطار الأدب حسب فهمها الخاص لها؛ فمثلا إذا كان سقوط زمرة الباحث المصري الفذ نصر حامد أبو زيد في فخ المنهج الاجتماعي المعروف بالجدلية المادية غير مقصود كونهم أحسو شخصيا وبتجربة مع اللغة ما لي السياق الثقافي اللغوي من تأثير في تقبُّل معاني وأفكار بل في الاحتفاظ بطقوس وأنثروبولوجيا معينة، أوصلهم التعمّق فيه إلى الفكر المادي الجدلي دون قصد، أما نقادنا الجزائريين في جامعة الجزائر فقفزوا إلى ذلك المنهج مسلحين بالجاهزية الحزبية وليعملوا معاول الشر والفساد ويدعونه نقدا أدبيا جزائريا معاصرا! لأن تجاربهم وحسهم اللغوي مفقود نتيجة افتقاد الجبلة على اللغة العربية وهم في ذلك معتقدين أنهم في مستوى زمرة نصر حامد أبو زيد وجابر عصفور! هذا من جهة: عدم الجبلة على اللغة العربية، وعدم التحرك مع هويتها ستُحيلهم كأنهم دارسون اجتماعيون أو فلسفيون لقضايا اللغة والنقد والأدب! أي هناك انحراف عن التخصص لانحراف عن جوهر هذا التخصص وهو محك الجبلة على اللغة التي تحيل إلى البلاغة وهاته الأخيرة هي المحك لأي مخيلة وإبداعية، ومن جهة أخرى هناك انحراف مكرسا بالواقع، واقع سلطة المعرفة الما بعد حداثية؛ تجد صبي وقد تدكتر بالتعود الثقافي على التملق، المراوغة والاحتيال والفوضى يدخل كالأبله في المطاولة والغرور وهو غير آبه لمخاطر فعله لأنّ هناك خلفه سلطة قوة معرفة تدعمه. هذا وعلى المهتم أن يلتمس مقالاتنا الأخرى).

وللأسف الواقع العربي "الفنيان" اتجاه التطبيق كعادته دحض أو أدخل الشك في نجاعتها (البنيوية) وهي بعد في المهد؛ عندما ضرب النقد في المشرق العربي التنظير النقدي المغاربي المبكر بدعوة الابتعاد عن الأصول العربية، وهذا الحكم متين الصحة والدقة في نظري من زاوية أن المغاربة لم يرفقوا ترجماتهم للنظرية النقدية الفرنسية بالتطبيق إلا بعد ما بلغ المشارقة مبلغا كبيرا في التطبيق، بينما شن النقد المغاربي حملة الرد بدعوى التحريف النظري الذي انجر عنه زيغ في التطبيق.

فعبارة "عدم النضح" التي أتى بها الكاتب ههنا قد أحسن أيما إحسان لما أتى بها لأنها مربط الفرس في موضوعنا وفجوة للنفاذ منها إلى الحقائق المطموسة؛ عندما نقول عن العلم الفلاني أو المنهج الفلاني أنه غير ناضج، العلم أو التوجه النقدي الذي ساد أصلاً في مرحلة كانت الممارسات الأيديولوجية شيئا عاديا، وبالتالي هذا القول يعد من نافلة القول ليس إلا بل يستحسن على الدراسات والبحوث التي هي في مستوى الماجستير وما فوق نبذها أفضل. أما الإصرار على قوله فيعد فجوة أخرى ننفذ من خلالها إلى بعض الحقائق المغيبة عن طلبتنا في الديار الجزائرية.

أما عندما نقول عن الإنسان الذي يستعمل ذلك العلم وتلك الأداة أنه غير ناضج فالأمر هنا يختلف ولا يحتمل مقارنته بعدم نضج العلم/ المنهج، لأن الأيديولوجيا المدخل للذاتية وتغييب الروح العلمية من المفروض تكون في ذلك الوقت ألصق بالعلم والمنهج وليس بالإنسان، أما في وقتنا عصر تطور العلوم والمناهج نستطيع قلب الآية بكل أنفة ونقول عمّن يلتمس أداة المنهج السياقي: التاريخي أو النفسي أو الاجتماعي أنه غير ناضج غير نادمين وليس أداته الغير ناضجة! ببساطة لأن لكل نص أدبي بعد قراءته وفهمه مقاس بحث أو منهج يناسبه وليس العكس؛ فهناك من النصوص لا يليق لها غير المنهج السياقي، الذي يصفه صاحبنا أنه غير ناضج لأنه يسوق التحليل العلمي مغلفا بهامش من الذوقية أو الأيديولوجية إن شئت التي هي المعنى الذي يحمله النص الأدبي أحب من أحب وكره من كره لأن الأيديولوجيا هاته حالها كالشبح الذي شكّل هاجس النقد الأدبي في القرن العشرين فرأيناه يحاول جهده إقصاءها ـ تجريبا علميا إبستمولوجيا ولكن هيهات سيقع في جدليات ثقافية ومعرفية لا حصر لها ـ

ولما فعل ذلك أصّل أو أدى إلى المولد النهائي للمدرسة البنيوية في النقد الأدبي لكنه ما إن مضى به الزمن قليلا حتى أدرك خطء منطلقاته/مبادئه وتصوراته الفكرية عنها لمّا ظهر مصطلح الحدس وهو حاسة لا يقدر باي حال من الأحوال أي باحث يقول أنا وأنا في الصرامة العلمية تفاديها كمقابل لمفهوم البنية ثم من بعدها ظهر مفهوم الوصفية عند تشومسكي أو الرؤية حيث يعبر عن ذلك **بشمولية الرؤية: وهي تتجاوز الصيغ اللغوية لتحتضن موقف الإنسان الكلي ورؤيته للعالم**(10).. ثم تتابعت الحقائق حول علم البنيوي مُفضية إلى استيعاب الفكر البشري نتيجة مفادها كم هي محدودة طاقاته الإدراكية في العلوم الإنسانية والمادية على السواء ـ إلى درجة الوهم ـ كلما خطى خطوة إلى الأمام على طريق العلم، فحين أقيمت دعائم وركائز البنيوية على أصول علمية وفكرية سابقة ومقاربة لها من هنا بدأت محنة هذه المدرسة وأول اصل الذي من خلاله أراد النقاد تفادي الأيديولوجية فسقطوا في شرك أيديولوجيا جديدة أعتى من سابقتها ولعل الأصل الأول هو **حركة الشكلانيين الروس** الذي أقامت عليها البنيوية مرتكزاتها وكانت حينها روسيا تعج بمظاهر تاريخية تتجاذب أطرافها الأفكار الفلسفية والدينية والديكتاتورية فآثرت الحركة الاستقلال عن تلكم الأيديولوجيات والمذاهب بتتويج نفسها علما لكن لما التمست الأدب جاء التعميم عليه أيضا دون أيما اعتبارات إنسانية فقالوا عن الأدب أنه يُعدُّ نظامًا أَلْسُنِيًّا ذا وسائط إشارية (سيميولوجية) للواقع، وليس انعكاسًا للواقع. ثم جاءت الخطوة التأصيلية الثانية للبنيوية من صميم الشكلانية نفسها متوهمة الانفكاك من أسر الأيديولوجيا أيضا وهي **حلقة براغ**، فما أوعز لجاكبسون المضي بإصرار في بنائية اللغة منطلقا من الأصوات الوظيفية (الفونولوجيا) هي الأيديولوجيا البولشيفية، وقبل ذلك لا يمكن تجاهل ما عضد أفكار البنيويون للسير قدما في تصوراتهم هو الفكر التحليلي الرياضي الذي طبقه **النقد الجديد** في الولايات المتحدة الأمريكية بقيادة William Whitney (1827 ـ 1894) الذي يعتبر نقطة بداية الفكر البنيوي حسب جورج مونان (اللغة واقعة اجتماعية)، على أن ما فيه من منطق مُغني عن أي مضمون. ثم لعل المصدر التأصيلي الأكثر أهمية في تاريخ نشأة البنيوية هو **مدرسة الألسنية الحديثة** بقيادة فرديناند دي سيسور بما جاء به من خلاصة أفكار ما سبقه حول بنية اللغة كظاهرة اجتماعية والتي بقدر ما فيها من **عبقرية التحليل الفكري المادي للغة** بقدر ما فيها من تجاوز خطير لا يقبل التجاوز/التأجيل فيه! وهو

ذاك المتعلّق بعدم إمكانية عزل اللفظ /النظام عن المعنى أي عن علم النفس اللغوي في الدراسة العلمية وهو القدر الذي أفضى إلى نتائج نسبية ليست بالمطلقة. وإذا أخذت أنها مطلقة فإنها ستنعكس سلبا على كل منهج يبنى على هذه المبادئ الدي سيسورية بما سينفجر منها من إشكاليات فكرية عويصة كانفجار الينابيع الدافقة في كل صوب.

والحال في هذا اللبس ـ للأسف الشديد ـ إذن أنّ الذي "حضرته" المذكور أعلاه هو "الغير ناضج" مع معشر زمرته من الباحثين بين مزدوجتين من الديار الجزائرية بصفة خاصة والديار المغاربية بصفة عامة عندما لا يحيطون بهذه البديهيات. ولعلّ الفضيحة كل الفضيحة لا تكمن في نشر هؤلاء الطلبة لأبحاثهم ذات الدرجة Avec Mention دون العمل على تصحيحها بعد المناقشة بل في تجاوز لجان المناقشة عن تلك الأخطاء البديهية جدا. التي قد يقول عنها "الخاطي راسو" لا أعلم ما السبب أو لا أعلم ما الدوافع؟

لعل الدوافع بسيطة جدا، أي قسم من أقسام الجامعة هو مؤسسة، والمؤسسة تطبّق أيديولوجية السلطة التي يمثلها ذلك الأستاذ ــ وكما هي الدولة دولة معترف بها في الأمم المتحدة بغض النظر عن شمولية نظامها كذلك هو الأستاذ فيها بغض النظر عن مستواه المشكوك فيه بخاصة مع القضية التي نعالجها لأنه سيثبت لك عمليا أنه بصدد عدم جدوى الآليات والإجراءات النظرية البنيوية التي يحمل من دون أن يدري عندما يتم عزلها عن تطبيقاتها في توليد المعاني لتحريك الفكر بتشغيل الثنائية البنيوية علامة ـ معنى لا علامة ـ وظيفة، وذلك حينما يكون بصدد طالب الماجستير مخاطبا " لم تقنعي"! وهل أقنعت أنت طالبك حتى يقتنع بك؟ ــ فبتجربة خاصة ممتدة أقول جازما أنه لا يوجد في بعض المؤسسات العلمية كالتي بين يدينا شيء آخر لديها تقدمه غير خدمة الذوات بعدم النزاهة واللا موضوعية!! ــ لذلك عندما يمارس الطالب في قسم الدراسات العليا تخصص دراسات نقدية النقد من أجل النقد؛ يعني نوايا الموضوعية والنزاهة تخرج ليس من ذاته بل مع ذاته وبالفطرة لأنه نقْد معقودة نواصيه بالجوانب الذوقية النفسية (فعندما تنفي هذه الحقيقة كأنك تنفيه أنطولوجيا)، فيطلع منها ما هو نقد كالقبس، لا يُطري، لا يمدح، ولا يجامل في مواطن الذم والنقص أبدا، فالسبب هو أن هناك من يبيع عمره وهو واقف ضد النزاهة لا يهمّه لا نقد ولا موضوعية، وهناك من لا يقف ضدها

أبدا مهما كلفه الثمن: فما هو مذموم رديء هو كذلك لا انفصام بين الروح والجسد: البنيوية فكر مغلق ينبغي له أن لا يقترب من الفكر الإسلامي ـ إلا ما دخل في نطاق التزييف والتلفيق فإن كل حرف وكل كلمة وكل تركيب في القرآن يشي على البارئ المصور فكيف تعزله عن البنية الصوتية أو السردية؟ ـ والبنيوية آليات جافة ينبغي أن لا تقترب من النص الأدبي لأنه نص مزروعة فيها خلجات نفس المبدع إلا بالنسبة المتفق عليها مسبقا أحب من أحب وكره من كره، وقد أشار عبد الله الغذامي إلى أن النقد الأدبي الشكلاني أصبح بمثابة غطاء للسلطوي والمنزوي المؤسسي فشكّل أداة أيديولوجية بالنسبة لهما غير أنه مع **بداية التسعينيات من القرن العشرين دعا الباحث الأمريكي "فنسنت ليتش" إلى نقدٍ ثقافيّ ما بعد بنيويّ مهمته تمكين النقد المعاصر من الخروج من نفق الشكلانية، والدخول في أوجه الثقافة، ولا سيما تلك التي يهملها عادة النقد الأدبيّ**[11]

وهذه هي الأرضية التي جعلت أساتذتنا بين قوسين يقمعون النقد العقلاني الموضوعي وقد أحلوا محلّه النقد العلمي المظلّل بظلال الأيديولوجية، إذن موطئ الذاتية، **فالنقد الموضوعي هو وحده الذي يستطيع أن يحدد قيم الأعمال الأدبية ويعملها بعضها البعض بحيث يحيل أدب الأمة إلى جسم حي متكامل أو مجرى يتدفق دون توقف يتصل فيه الماضي بالحاضر والحاضر بالماضي.. والنقد الموضوعي هو وحده أيضا الذي يستطيع أن يربي "ما يسمى بالذوق ـ أو بمعنى آخر ـ يخلق القدرة على التمييز بين ما هو فني وما هو غير فني"..**[12]، بل سيبيتون الليالي في البحث عن أخطائه النحوية في مذكرته (الذي بعثه إليهم صاحبه بتقنية الوورد) عندما يتيقنون أنه ناقد عقلاني مُتثبِت غير مُؤدلج معهم، وربما قد لا يجدونها فيفتعلونها* وعَدْ حتى الفواصل، وربما يجدونها موزعة جيدا فيعيدون توزيعها وفق هواهم حتى ينالوا منه في الأخير؛ لأنه لم يُمَالِئ ولم يتملق ولم يمدح جزافا بإيجاز لم يمرُق عكس ما كانوا يتمنون، ولو وجدوا فيه كل ما تمنوه لتركوا مذكرته على حالها بعواهنها الإملائية والتكريبية والمعرفية الكارثية ولا يقتربون منها إلا للإمضاء ومنح درجة الامتياز! فكأن بهؤلاء الأساتذة وهم ينتقمون للنقد اللا موضوعي ينتقمون كمرتزقة لسلطة المعرفة التي تعرف منذ الاستقلال كيف تجعل المثقفين يخضعون لسياسة رأس المال. إذن مشهد النقد الأدبي الأكاديمي الجزائري

قد تحول مع البنيوية ومع مثيلتها الشكلانية 180 درجة عن غاياته الحقة، تحول عن تعريفه الأصلي" النقد فن التمييز بين الأساليب، وتبيان مميزات العمل الأدبي **وعيوبه**" والذي يصادفه جميع المنتسبين لأنه موضوع كمعلم عند مداخل كل كليات اللغة العربية إلى التعريف الذي فيه اضطهاد وجبروت قوة: " النقد هو تبيان **المحاسن** المميزة للعمل الأدبي"! وإذا ما مسّ نوع من التضخيم لصور أصحاب النقد البنيوي من الأوروبيين والعرب المشارقة فأنه تضخيم غير طبيعي/ غير واقعي ومشوّهٍ لصورهم تماما كوقوفهم حيال مرآة محدّبة مدة ناهزت العشرين عاما في غياب تام لمن يوقظهم من أحلام اليقظة تلك، دائما كان فيه استغباء للعقول بذريعة العلم، غير أننا بإزاء النقاد البنيويين الجزائريين والمغربيين فإننا سنقع على تشوُّه مزدوج أو مضاعف للصور، حتى غدت هامات وقد بلغ بها الكِبر حد لا يطاق من الغرور والتطاول، وهذا نتيجة لوقوعهم أمام نفس تلكم المرآة زائد **خاصية التملق والممالأة الشديدة** نتيجة غياب الديمقراطية الثقافية.

فمستواك أنت كباحث وناقد مع زمرتك من مستوى النص الأدبي الذي تود دراسته دراسة نقدية لأن مستوى النقد يتبع مستوى الأدب وهذه المزية قدمتها لكم البنيوية دون قصد حين عزلت منتج النص أو الذات المتعالية وكل العوامل اللاّ نصية عن التحليل والدراسة؛ فلكم انطبقت مقولة ربّ ضارة نافعة أو مصائب قوم عند قوم فوائد فيما يخص تطبيق المنهج البنيوي على ما نسميه المنتج الأدبي الجزائري، لأن الجزائريين بخاصة الأكاديميين سيستغلون تلك المناهج النصانية كالبنيوية (التي طورها الأوروبيون كي يبعدوا نصوص الوحي عن الأحكام الغيبية والأخلاقيات القيمية المقترنة بالمناهج السياقية) للترويج لأدبهم القومي البعيد كل البعد في مستواه عن مستوى آداب الشعوب المماثلة له لظروف تاريخية و أخرى ليس بإمكاننا سوقها في هذه العجالة. والآداب العظمى في العالم (كالأدب الواقعي المصري مثلا) إنما عرفت بمضامينها الإنسانية والواقعية؛ فيها من التنوع ما يجعلها محل دراسة من جميع أشكال المناهج سياقية ونسقية وما بعد بنيوية. أما الآداب الصغرى المهمشة الطريحة الفراش فلا تعرف إلا بأشكالها وبنية نصوصها ويتجلّى هذا الطرح في محاولة صاحبنا التغطية على الموهبة والمقدرة الإبداعية بالتحليل البنيوي، برغم ادعاء العلمية والأدبية تتجلى شيمة عصبية في كلامه التي

هي إنما قرينة الضعف ( بل لأنها إصرار على الضعف كإصرار الدفاع عن القبيلة في العصر الجاهلي، وهو دفاع لا يأخذ في عين الاعتبار صواب الفكرة والرأي والحق لأنه قد أعماه التشنج العصبي للقبيلة التي في هذه الحالة الجزائر وسط عالمها العربي، فما أحوج الأدب العربي الجزائري المعاصر ونقده إلى مقولة الدرجة الصفر في الكتابة على المستوى التاريخي والاجتماعي الذي ينشطان فيه الناقد والأديب قبل المستوى النصي، كون أن اللحظة المغلقة التي نسميها اللا تاريخي ـ التزامني ـ من صنع المفتوح التاريخي فيكيف نصنع درجة صفر في الكتابة في المصنوع وهي مفتقدة في الصانع؟) ثم أنّ الأدب الجزائري في تاريخه لم يرقى لأن يكون محل دراسات نقدية مهمة كونه سطحي إلا فيما ندر فلا يستوفي قيمة الأدب شكلا وخطابا. ومستوى النقد في أي بلد من مستوى أدبه ثم " **إن للنص غريزة مقاومة، فهو لا يحب التطويع القصري كي يكون في خدمة تلك المناهج، فعندما تتلاشى تلك الغريزة يتلاشى معها جوهر الأدب. والحال أن الحس السليم يقتضي تطويع المناهج لتكون في خدمة الأدب شريطة ألا يُجريه نفس الناقد على نفس النص، بل نقاد متعددون على نص واحد أو عدة نصوص.**"(13)

أجل، سيستغلونها جاعلين كل من هب ودب والجًا الكتابة الأدبية بلغة الضاد في مصاف المبدع وليضعها نقادهم الغير ناضجين (وصاحبنا مشروع لواحد منهم) في مصاف القاص أو الشاعر أو الروائي وهو لا يستحق ذلك بل حسبُه أنه لا يجيد الكلام بلغة عربية سليمة أصلا كتلك التي يتكلّمها طفل في مشرق البلاد العربية، بل لا يعرف ما معنى المنظور ولا يعرف ما معنى المجاز وما معنى النبرة وما معنى البطل في الرواية أصلا، مع ذلك تعتريه نشوة الكاتب راغبا في الشهرة بين ليلة وضحاها! ـ ينطبق الأمر ههنا فقط على اللغة العربية أما مع اللغة الفرنسية فأدب الجزائريين خاصة والمغاربة عامة فذوي مستوى رفيع إجمالاً ـ حري بهذه النصوص أن لا تحلل إلا تحليلا لغويا معياريا وتحليلا تاريخيا للكشف عن نضج صاحبها الأدبي من عدمه، لا جرم أن يصفها الناقد المصري عبد القادر القط أنها "شدّت الجيل إليها بحكم طرافتها وإن كانت تغطي على السطحية وعجز الموهبة" إثر موقفه من **الأشكال النقدية الجديدة** التي غزت ستينيات القرن الماضي، أما الناقد شكري محمد عياد فقال لفاروق شوشة

في حصة تلفزيونية بثت بداية الثمانينات عن الأشكال الجديدة في النقد الأدبي (البنيوية) التي طبعت الحياة النقدية آنذاك، قال أن " افتقاد الأجيال الحالية للموقف والتمرد على الواقع وإرادة التغيير، الموقف هو الذي يعمل الأعمال الأدبية الكبرى، التجديد في الشكل الفني يتجاهل الموقف اتجاه القضايا الكبرى، والتجديد في الشكل الفني مجرد مغامرات شكلية لا تتقبّل إلا مع كثير من الشك المتلقي يحس إزائها إنها متطفلة على الموقف أو مفتعلة، فمحاكاة الاتجاه النقدي لا يمكن أن تكون إلا بعد دراسة متعمقة للاتجاه الأدبي الذي يحاكيه، ولِما صدر عنه من فلسفة ومن رؤية للاتجاه ورؤية للحياة، لاتخاذ موقف اتجاه الحياة ومصيبة نقدنا وأدبنا العربي المعاصر أنهما لا يتخذان موقفا، **إذا كنت لا أمتلك شيئا لا داعي أن أدعي ملكيته بل أحاول أن أمتلكه،** إذا لم يكن لدي موقف نابع من تراثي وموقفي الحضاري وطموحاتي نحو المستقبل فلا ينفعني في شيء أن أستعير هذا الموقف. ولعل هذه النقمة في طيها نعمة هو أننا بدأنا نرى أنفسنا على حقيقتها، وهي أننا أقوام عراة بحاجة لما يسترنا والذي يسترنا يجب أن يكون ثوبا من نسج أيدينا. الوافد الأجنبي مجرد روافد لا نحتذيها ولكن نختار منها ما يمثل المرحلة المعاشة."[14]

وفي نفس الاتجاه يرى الناقد السعودي سعيد السريحي أنه بدايةً من الثمانينات بدأت المناهج والنظريات الغربية المركزية المستغلقة تشهد جدلا حادا وقد تخوف الغرب من أن الآخر غير الغربي شغوف إلى اختراقها قبله، ولهذا أراد البدء قبله في استكشاف الآخر عن طريق الثقافة من ثمة العمل على فتح مغاليقه بنفسه بالتحول من المنهجية إلى الفلسفيّة التي تطرح الفكرة ونقيضها في آن مستطردا: "..هذا التلقي للفكر الحديث بعقلية مربات على آليات التفكير القديم مردّه غياب الدرس الفلسفي الذي كان من شأنه أن يشكل القاعدة التي تمكننا من تمييز الفروع انطلاقا بين التمايز بين الأصول ومرتكزاتها الفلسفية التي ترتكز إليها، وتحول بيننا وبين تلفيق حاطب الليل (خطفة لم تمكنا من تفهم النقد الحديث مكتفية بأشباح المصطلحات) غياب الدرس الفلسفي غياب مزدوج يشكل جانبا منه الجهل بالفلسفة الحديثة، ويشكل الجانب الآخر الجهل بالفلسفة القديمة (..) ثمة جهل مركب بالفلسفة الحديثة التي انبثقت عنها مناهج الفكر المعاصر والفلسفة القديمة التي انبنت عليها نظريات البلاغة، فالنظريات النقدية لم تكن

لتستقر وتتماسك وتجد لنفسها نسبا عريقا فيما تشهده مختلف العلوم الإنسانية من تطور وما تشهده اللغة الشعرية من ثورة لو لم تكن منطلقة من مراجعة شاملة للموروث النقدي والبلاغي، متسلحة بكل ما تم إنجازه في حقل الفلسفة من مراجعة للكليات والأصول الموروثة من الفلسفة اليونانية والمقولات الأرسطية، وهي المقولات التي تشكل المهاد الفلسفي للبلاغة العربية وغير العربية كذلك، انطلقت النظريات النقدية من مراجعة للأسس الفلسفية التي انبنت عليها البلاغة ونحن مازلنا أسرى للفكر الفلسفي الذي انبنت عليه البلاغة، ولذلك لم نرى في المناهج النقدية الحديثة سوى مصطلحات مقارنا بينها وبين ما يتبدى لنا في مناهجنا وقلنا لهذه كوني تلك. لذلك لا يجب أن نقع في الخلط عندما نعمد إلى التلفيق والتوفيق بين بلاغة لم نعنى باستقصاء فلسفتها وبين نقد لم نلم بما يستند عليه من فلسفة قامت على نقض ما تستند عليه البلاغة من فلسفة، غياب الوعي المزدوج بالفلسفة أباح لآليات التفكير أن تنشط مغفلة جوانب الاختلاف ومقتنصة معالم الاختلاف والتشابه فردّت ما هو حديث مجهول إلى ما هو قديم معلوم وأعادت ما هو طارئ على التفكير إلى ما هو مستقر فيه فانتهت في هذا الإطار إلى مصطلحات حديثة في مفاهيم قديمة.. وهو ما لم يمكننا من قطع آليات الفكر القديم"[15]

ثم إنّ الباحث الفرنسي عندما أوجد المنهج البنيوي لم يضع في الحسبان هذه الاعتبارات التي استغلتها الشعوب التي لا تمتلك زادا وموروثا لغويا صافٍ لكي تنتج به شيئا يدعى أدبا كالجزائر، ولو أنه وضعها في الاعتبار وأدخل هذه القاعدة في الأساس لأصبح المنهج البنيوي محرّم تطبيقه على النصوص التي يغيب فيها الحد الأدنى من الأدبية والتحكم في اللغة العربية (مجرّد حشد لكلمات أغلبها ملحونة بها عجمة في فقرات والفقرات في صفحات) إذن ليست الأدبية المقصودة هنا أدبية تزفيتان تودوروف وغيرها المتمثلة في تحليل البنية اللغوية وشعرية السرد جماليا، فأي جمال وأي دلالة قد يقترن بالسرد وباللغة وهي ليست لغة أصلا؟ أي غير سليمة صرفيا ونحويا (تركيبا وإعرابا) وليس فيها من تنوع معجمي يشبه ذاك التنوع الذي نجده عند العرب المشارقة، إذن ليس فيها من روح عربية غير حروفها الهجائية، ولا بد من التفرقة ههنا بين ما تصطلح عليها المناهج البنيوية بمصطلح "أدبية الأدب" أو "الشعرية" أو "جمالية الخطاب السردي الناتج عن جمالية الوظيفة البنيوية، الخليقة كلّها بإجراءات الدلالة الخالية من

روح المخيلة الإبداعية وبين خطاب اللغة في اللغة بعبق ماهيتها، بيانا ونكهة/ذوقا، الخطاب الذي آثار الغيورين على مدونة الأدب والنقد العربين الأصيلين بدءً بطه حسين والعقاد وانتهاءً بشكري عياد وعبد العزيز حمودة، وهنا لا بد من ملاحظة أثيرة تثبت إشكالية كبرى لازالت تشكل منطقة مظلمة في فهم الأدب وهي الإشكالية الجدلية اللغة ـ المعنى/ الفكر، ولا يسعنا المقام هنا غير الاختزال لأن الموضوع يحتاج لدراسات في مجلدات ومجلدات: فجمال المعنى والفكر من جمال اللغة في الأدب؛ فيها وبها، وليس استغناءً عنها لصالح عناصر السرد، والأدب بهذا المفهوم **ليس أبدا إفادة معرفية في غير من ثوب من المتعة** وإلا تحوّل إلى مدونة تاريخية، لأن العلم وهو يحاول أن يعارض الأدب معارضة مطلقة (بتعصب) هو ينزع للتقنين والتكميم آليا ليغدو كمقابل له وقد تحول إلى أيدولوجية التقنين، والأدب الذي يعرض هذه المنافرة غير مستحٍ ولا آبه بنتائجها لأنه هكذا طبيعته وجدانية نفسية فمهما دخل عليه العلم ليقيسه بقياساته لابد أن يراعي طبيعته لذا قيل "علم الأدب" بالجمع بالطرفين النقيضين، الجمع الذي يشير إلى النّسبية وجوبا. وهذه النتيجة هي ما تشرحها الفقرة التالية المأخوذة من مقدمة كتاب علم الدلالة (علم المعاني) لمحمد علي الخولي بالصفحة 11، أين كل ما ذكر مفردات اللغة والوظيفة/ النقد البنيوي والمعنى/الأدب إلا وأعقبها بمفردة المتعة: "**علم الدلالة هو أحد فروع علم اللغة أو اللغويات أو اللسانيات. وهو من أهم هذه الفروع وأعقدها وأمتعها في آن واحد. فهو هام لأنه يبحث في المعنى الذي هو الوظيفة الرئيسة للغة. وهو معقد لأنه يبحث في أمور مجردة متشعبة ذات طبيعة فلسفية نفسية. وهو ممتع لأن اقتحامه، على ما فيه تعقيد، يعطي الباحث متعة ذهنية راقية**" وهناك نوع من اللا انسجام بين العلم والأدب في قولنا "علم الأدب" حيث "**النقد الأدبي هو علم النص أو هو علم الظاهرة الأدبية، وقد يبدو استخدام مصطلح العلم في وصف النقد الأدبي غريبة بعض الشيء، ويحتاج إلى تسويغ ولاسيما أن النقد الأدبي معياري، في حين أن العلم وصفي. إننا إذ نستخدم مصطلح العلم، في هذا المقام، نستخدمه وفي الذهن مصطلح العلوم الإنسانية التي يشكل النقد الأدبي حق من حقولها، ومن المعروف أن هذه العلوم لا تستطيع أن تضاهي العلوم التجريبية في مسألة الدقة العلمية**"(16)، أما العلاقة الجدلية التي تطبعه بطابعها الخاص تكمن في أنه كلما زادت جماليات اللغة بيانا/جمال المعاني زادت الإفادة المعرفية وكان وقعُها في النفس

أقوى (كنتيجة نفسية للانشراح الذي تحدثه) وأضحت هذه العلاقة تشكل أدبا وكلّما قلّت تلكم الجمالية رُجِّحت الفائدة الخارجية عنه والغير أدبية التي هي الإيتيك Éthique على حساب الإستيتيك Esthétique) وخرجت العلاقة بين الطرفين اللغة والمعنى رويدا رويدا من فضاء الأدب. وهذا الجمال منسوب للإبداع الفني من مخيلة وبلاغة، وقيمته الفنية لا يمكن تعويضها برص مفردات اللغة (وهي في صورها الشكلية وحدات: وظائف أو عوامل أو سرد) وإقامتها علاقات بينية تكاملية مع بعضها البعض هي البنية التي يزعُم البنيويون أنها تخلق الشعرية والإبداع، وإنما هي تخلق في الحقيقة الخبر السردي الذي يقابل/يناطح خبرا سرديا آخر، أما الذي يخلق الإبداع فهي الصيغ والتراكيب الفنية من بلاغة وخيال وفي قول صلاح فضل:" **إن البنية في الشعر هي جملة المبادئ التي تحكم عملية الخلق الشعري؛ بحيث يتبع كل عنصر عنصرا آخر، وهي الشكل والموضوع وعناصرهما، وهي المصطلح الأعم الذي يتحدد نتيجة لمبادئ أخرى ذات طابع شكل موضوعي تتحكم في توليد وخلق العمل الأدبي، ويترتب عليها النظام الذي تتخذه الوحدات المكونة، أما الشكل فهو على هذا الاعتبار ليس إلا الهيكل الناجم عن قوانين الصياغة، ومبادئ التكرار والقوالب التي توضع فيها عناصر معينة، ويعود التمييز بينه وبين الموضوع إلى طبيعة المادة المزدوجة للأدب وهي اللغة، وعليه فإن الأدب من وجهة النظر البنائية ما هو إلا مجموعة من الأنظمة الدالة، والتي تكون وسطا بين اللغة والموضوع (الشيء الخارجي)**"[(17)] ونلتمس أن فضل مدرك لهذه الإشكالية من خلال تفسيره بأنه لا تفسير آخر ارتضاه البنيويون غير القول: ويعود التمييز بينه (الشكل) وبين الموضوع إلى طبيعة المادة المزدوجة للأدب وهي اللغة، كيف؟ لا يعرف!

وفي الحقيقة البنيوية لم تلتفت لهذه الاعتبارات أو التفتت إليها من زاوية ضيقة وهي عجمة المهاجر ـ لأن تودوروف نفسه كان بلغاريا مهاجرا في فرنسا ـ لذلك وجب على العربي الأصيل تحريم تطبيق البنيوية على أدب هجين وركيك بالشكل الذي كانت عليه الجزائر ومازالت ترزح فيه إلا ما رحم ربك مثلما يُحرّم الإسلاميين قراءة نصهم الديني قراءة بنيوية مدّعين أنها تمثل انغلاق العقل الغربي وتمركزه حول ذاته[(18)] ـ وهل وُجد آخر بالنسبة للغرب منفتح عليه وغير متمركز على ذاته حتى يفعلوا!؟ ـ إذن فقد أبهجت البنيوية معشر نقاد الجزائر إلى أيامنا أيّما

إبهاج عندما وجدوا فيها فرصة لا تعوض للقفز بأدبهم إلى خانة "التصنيف" مغالطة وانزياحا عن الحقائق، ولم يتوقفوا على ترجمة كل التفاصيل التي تصلهم حولها من وراء البحار مغترين بالتحكم العالي باللغة الفرنسية، فكانت ترجمة عالية اللبس والغموض نتيجة افتقاد الأسلوب العادي (تعبير جاف لا يوحي أبدا بأنك إزاء لغة عربية عادية فما بالك بالتفنن فيها) فقد سعوا إلى نقل الفهم النظري/ المصطلحي دون أدنى درجة من التحكم بمقتضيات اللغة الأم وقد هزئت منهم كثيرا زمرة شكري محمد عياد فحسبوا ذلك غيرة لقلة الخبرة التنافسية النخبوية آنذاك، ولم يكونوا أحرارا بل كانوا مقيدين بالنهج السياسي للبلد الذي يجعل كل شيء تحت عباءته (سياسة ديماغوجية كالتعريب ثم الجزأرة فالمجالس العليا .. )

فكم أجاز هذا المنهج زورا وبهتانا لشريحة واسعة ممن لا يعرفون كتابة أسمائهم كتابة صحيحة تدوين أسمائهم في قائمة كتاب الأدب الجزائري المعاصر! يكفي شهادةً على أن هذا الباحث هو مشروع ذلك النُويقد الغير المتمرّس والمتخرج لتوه بشهادة ماستر أو ماجستير[19] كصاحبنا المذكور أعلاه من معهد اللغة العربية وآدابها يجد صديق له صحفي ركيك اللغة و اللسان غاوي كتابة لكنه واقع تعسفا في صورة "هاوي كتابة" أو ابن عمومته أو ابن منطقته يأخذ روايته يدرسها دراسة أكاديمية/مذكرة دكتوراه، وهي التي ستلقى ترحيبا وتحفيزا من لدن اللّجان العلمية بحجة واهية غير مدروسة وهي التمكين للمنتوج الجزائري أمام المنتوج العربي! فيساهم في ذيوع صاحبها من ثم نشر وترسيم الرداءة نقدا وأدبا وهو الذي كتب روايته أو قصيدته الأولى صدفة أو ترويحا عن النفس، فجأةً سيجد عمله محل الإشادة البنيوية إن صح التعبير أكاديميا وإعلاميا!

والشاهد التطبيقي هو ما حدث لي شخصيا مؤخرا من مفارقة وأنا إزاء من جهة البحث في مدونة المصريين البنيوية ـ الأكاديمية ـ فوجدت أن محمد عبد المطلب وأحمد الدرويش مثلا حاولا جهدهما لإلحاق البلاغة بالأسلوبية ولو على المستوى التركيبي للجملة لا على مستوى الخطاب، أي إيجاد نوع من الموازنة أو التسوية النسبية بين علمية الأسلوبية كمنهج بنيوي حديث والأسلوب البلاغي المعياري في التراث النقدي العربي وطبعا سال لعابي إزاء انسجام مادة الموضوع مع شكلها التعبيري ذي المستوى الأكاديمي حقا، أما من الجهة الثانية وأنا بإزاء

مدونة الجزائريين البنيوية الأكاديمية فالعكس هو الذي حصل معي عندما وجدتهم استبدلوا **البلاغة** في التراث النقدي **باللسانيات** عنوة (مقياس أطلقوا عليه اسم **لسانيات التراث!** تقليدا للفرنسيين الذي تطورت لغة أدبهم متخليةً عن تراثها البلاغي منذ العهد الرومانسي نهاية القرن الـ 18 من دون أخذ بالاعتبار خصائص اللغة العربية المختلفة) استبدال في الحقيقة يقزّز النفس مع ذلك تجاوزت حالة "المسخ" هذه من أجل البحث أولا وأخيرا، وكانت أول محاضرة أمامي بعنوان" **ازدهار اللّغة العربية بين لسانيات التراث وعلم اللّغة الحديث**" قصدوا بهكذا عنوان استفزازي تغليب بالإحلال للسانيات أو شعرية السرد في وظيفية البنيوية (الآليات) على حساب جماليات لغة الإبداع الحقة الخليقة بالأدب المستمدّة من البلاغة العربية وبالأثر الرجعي! مع ذلك حمّلتها من موقع جامعة تلمسان وهي موجهة لطلبة ماستر ½ لأنتفع منها لكن والله العظيم ثم والله العظيم لم أقدر على إتمام قراءة صفحتين اثنتين لركاكة الأسلوب الشديدة. وقد ألفينا السيميوطيقيين للتمييز بين الأشكال السردية الأدبية عن غيرها من الأشكال الخطابية بجماليات غير بلاغية أو غير سيكولوجية راحوا يقولون بتشفير النص الأدبي، أما الشكلانيون الروس فقالوا من جهة بجمالية وظيفة بناء عناصر الحبكة في الحكي ومن جهة أخرى بضرورة تحليل العلاقة بين الإنشاء والأسلوب، وهناك من الباحثين في فلسفة الفن والجمال من يؤكدون أنّ للغة التواصلية/اللسانية نفسها جمال خاص بها وهو الجمال المدرك شكليا، كما يقول به رمضان الصباغ: "**وبناء على ذلك فإن الكلمات في العمل الأدبي تمثل مادته، وبالتالي تحكمها القوانين التي تحكم اللغة. وقد تطور هذا المفهوم فيما بعد إلى مفهوم "النسق" الذي صار يعبّر عن وحدة عضوية لما يسمى تقليديا بالشكل والمضمون ولقد انبثق مفهوم الشكل ـ بهذا المعنى ـ من تصور للإدراك الفني أو الإدراك الجمالي على أنه إدراك للشكل، وأن هذا الإدراك ليس مجرد حالة سيكولوجية وإنما هو عنصر من عناصر الفن. فالفن لا يوجد خارج الإدراك، والشكل وحدة ديناميكية وملموسة لها معنى في ذاتها دون إضافة أي عنصر خارجي عنها، وتدرك بشكل مستقل عما عداها**"[20] لكن ألم يكن الأولى بكل هذه الجهود الإبستمولوجية في النقد الجديد النظر بجدية إلى الأدب باعتباره غير منفصل عن جوهره، وعدم التعالي عن النقد التقليدي والقفز عليه مجرد القفز. في الحقيقة هذه ما هي إلا نتائج نسبية المعرفة في المناهج البنيوية بعد اكتشاف نظريات تحليل الخطاب ونظرية القواعد التوليدية

التحويلية لنعوم تشومسكي، حيث أثبت تشومسكي أن جمال الشكل اللفظي متواشج مركب بالحالة النفسية/المعنى الذهني وحسبه هو الأسبق في مدار إحداث الدلالة المنجرة عن الثنائية (شكل/لفظ ـ معنى/مضمون) التي تبدو متزامنة الحدوث حيث نولد ولدينا القدرة على التأثر بقواعد اللغة بالخبرة والتعلم، لكن القدرة على اللغة نفسها موجودة مع أو بدون التأثيرات البيئية.

## 2. كيف تعاملت البنيوية مع التاريخ والواقعة الاجتماعية؟:

إن الفكر البنيوي خلق عقب نشأته ثم انتشاره رفضا و تعصبا، بل نقاشا و صراعات فكرية حادة بين الحداثيين والإسلاميين في الوطن العربي لأنها أطلقت مقولة موت المؤلف، وشنّ عليه الإسلاميون و مازالوا حملات مسعورة مليئة بالمغالطات العلمية المدروسة منها ما اكتسى طابع النقد العلمي المنضبط من قبل إسلاميو فترة السبعينات والثمانينات لكنه سرعان ما أخذ طريق اللا انضباط واللا دقة العلمية بعد ذلك بخاصة في الجامعات الإسلامية ؛ يطرحون فيه على طلابهم ولغايات تعليمية حقائق مغلوطة عن أصول البنيوية وغاياتها كجامعة غزة الإسلامية أو جامعة الأندلس الإسلامية آخذين إياها بدورهم عن غلاتهم المتعصبين اتجاه علوم الغرب المادية حين يقول أحدهم: "**والبنيوية عند ظهورها لا تعتبر اتجاها مماثلا و موازيا للاتجاهين الرئيسيين الموجودين آنذاك في أوروبا** (الشكلانية والماركسية) **بل تعد منهجا تفرع عن أحد المنهجين السابقين أو كليهما**"[(21)]

ولعل حقيقة الحقائق التي لا تقبل المجادلة والتي لا يسمح موضوع مقالتنا من الاستفاضة فيها، هو أن للفكر البنيوي أصول فلسفية وهو الذي انبرى مع ثلة من المفكرين: إيمانوال كانط ، لوي التوسير ، أوجست كونت، رومان جاكوبسن، كلود ليفي شتراوس نقض أطروحات المدرسة الفلسفية المثالية (أفلاطون - شلنج - هيغل) التي تقول بالروح المطلق أو أولوية الفكر على المادة في منهجها و أطروحات المدرسة المادية أيضا التي ترى العكس بأن المادة هي التي تحث الفكر وبدونها لا يحدث التغير والارتقاء وهو التفسير المادي القائم على صراع المتضادات أو المتناقضات (ماركس فيبر ـ كارل ماركس). إذن بين النظرة الإلحادية والشيوعية التي تلغي تماما دور الميتافيزيقا أو ما أصبح يعرف بعلم الميتافيزيقا وبين الفلسفة المثالية والمدارس الكاثوليكية والمذاهب القريبة منها نشأ الفكر البنيوي من رحم الفلسفة التجريبية والعقلية محاولاً

ردم الهوة بين المدرستين الفلسفيتين الأشهر في أوروبا آنذاك مع الوجودية[22] طارحا مرتكزه الأساس وهو أن الذات المتعالية /الله لا تعني هذا الفكر من قريب أو بعيد وهو لا يرفضها كالفكر المادي ( ليس إلحاديا) لكن يحيدها عن العملية العلمية إلى مضاربها المرحبة بها وهي الطقوس والاعتقادات الروحية، من ثمة تجاوز إشكالية أن الحقيقة /المعنى كامنة في الداخل/ في بنية الطبيعة و بين أن تكون كامنة في الفكر/ في خارج الكون، دافعة بهذا الصراع الثنائي إلى الظاهرة في بنيانها ونظامها المشيّد و دون ذات متعالية؛ لأن الفكر الديني يهوديا أو مسيحيا أو إسلاميا يناقض العقل أما النظرية البنيوية فترد مصدر الأفكار الدينية ردا عقليا بنيويا ألا هو التضاد البنيوي المميز للطبيعة الكونية وليس الوحي أو الإله كما يزعمون. على أن ليس هناك انفصاما بين اللغة والعقل/الفكر بل تكاملا يُستقصى من خلال ثنائية دي سوسير الشهيرة دال ـ مدلول أي أن المعنى تابع للبنية، لا وجود تصورا للعالم من دون مادة، ولا نجد أفضل من الفيلسوف بول ريكور لدحض أقوال الإسلاميين المغلوطة اتجاه الأصول الفلسفية للبنيوية وحداثة الغرب عموما، التي أعطتها دون أدنى شك البنيوية دفعا قويا، زاعمين أنها مجرد اتجاه لقراءة النصوص الأدبية حيث يقول: "**نميز هنا بين البنيوية الفلسفية عن الألسنية البنيوية (..) لا شك أن البنيوية الفلسفية تنطلق من هذا التفكير ولكنها تضيف أطروحة حول الواقع الذي لم يعد يشكل أطروحة عند الألسنية بل عند الفلاسفة**"[23]

و لعلّه كما ذكرنا ما أمد النظرية البنيوية أكسير حياة كي تنهض وتخرج من كونها مجرد فكرة فلسفية مكتسحة مختلف العلوم رافدان من العلوم الإنسانية؛ بالتحديد من للغويات وهما: أبحاث فرديناند ديسوسير Ferdinand de Saussure في قوله بالنسق أو النظام في دراسته العلمية اللغة والمدرسة الشكلانية الروسية على يد رومان جاكُبسون Roman Jacobson الذي يعد أول من نطق اسم البنيوية أثناء المؤتمر الأول الذي خصصته حلقة براغ للأسلوبية عام 1929، وهناك من يضيف لهما تحاليل سيڤموند فرويد النفسية (بدليل اعتماد النظرية النقدية الألمانية والنقد الثقافي عليها في نقد انغلاق الذات النقدية على نفسها، الذات التي ترى نفسها قمة العقل وبالتالي نُشدان الفاشية).

وفي هذا الرافد ينكشف خيطان يثبتان أن البنيوية ما هي إلا مرحلة إبستمولوجية معرفية تحوي في طياتها تناقض فكري صارخ على مستوى بنية الذات الإنسانية ـ والتي مثلنا لها أعلاه بالسلوك الغير واعي بل غير المعاصر التحضّر للقائمين على ترسيخ المناهج البنيوية أكاديميا ـ وعلى مستوى بنية الخارطة السياسية المشكلة من اليساريين والليبراليين والتقليديين:" **البحث عن أنظمة مجردة وصورية جدا في العلوم الإنسانية هو، على مستوى الفانتازيا اللاواعية، أمر مازوخي. والحق أن هذه الإشارة تلقي ضوءً كافية على التحفيز اللاواعي الذي يمكن أن يكون واقفا خلف تطور الأنظمة البنيوية، في المرحلة الفرنسية على الأقل، حين قُصد من هذه الأنظمة أن تفسر بنية الذات الإنسانية، واشتغالات الرغبة الإنسانية. فالبنيوية، بقدر ما يتم تصورها كشبكة لربط الرغبة وتقييدها، هي فانتازيا مازوخية؛ وبصورة حرفية، هي فانتازيا استرقاق. أما بقدر ما يتم تصورها كشبكة لربط العقول الأخرى أو الأجساد الأخرى وتقييدها، فهي فانتازيا سادية. (تبدي النظريات الألتوسرية الخاصة بالإيديولوجيا مثل هذا الشعور السادي، والألتوسريون الفرحون الذين اعتادوا على الإعلان عن أنهم "لا إنسانويين نظرية" يتمتّعون بالصّفة السادية على وجه التحديد، حيث يمكن للمرء أن يشعر باستمتاعهم لدى المضي في استئصال شأفة الإنسانويين المنكمشين والمرتعدين)**"[24]

أما أن تأتي المغالطات غير المحسوبة العواقب بل القفز بالطلبة والناشئة نحو المجهول احتكاما إلى تيارات إسلامية متطرفة أينما كانت، وإذا بنفس الباحث (بلعفير) يغض الطرف عن هذه الحقيقة مستهدفا نشأة البنيوية في بحثه بقوله: " وقد شهد القرن 19م الكثير من التطورات في علوم مختلفة.. ثم تلا بعد ذلك بدايات القرن الـ 20 ظهور عدد من النظريات والآراء العلمية كان لها دور كبير في تطوير تلك العلوم.. ووصلت إلى نتيجة أن الظواهر العلمية ذات طبيعة معقدة، ومنذ تلك اللحظة ظهر لعلماء الغرب حقيقة **وهي أن العالم كله مبني على أنظمة تسير عليها أموره جميعها**، وأطلقوا مقولتهم المشهورة التي تقول: **لكي نستكمل معرفتنا عن العالم ينبغي أن نبحث عن بنية النظام**"!![25] بل الحقيقة الغير خافية على كل ذي لب هو أن البنيوية نظرية علمية ومنهج من مناهج الحداثة الغربية صالح للتطبيق

على كل العلوم، بخاصة النصوص الأدبية فإذا ما صادفت الفكرين الأيديولوجيين المادي والمثالي في طريقها تحللهما بوضعهما على طاولة التشريح العلمي الدقيق وحده وعلى مسافة واحدة وعلى قدم المساواة. وهي النصوص الأدبية التي تقبل بها البنيوية فترسّمها فعلا نصوصا أدبية، وليست كبنيوية الجزائريين الخاصة التي حاولت وما زالت تحاول غشنا بأنها بصدد النصوص الأدبية أو شيء من هذا القبيل مستغلة مقولة موت المؤلف بيد أنها في الحقيقة بصدد صفحات من حبر القلم على بياض الورق ليس إلاّ.

لقد فهمنا أن المناهج الشعرية والبنيوية تستبعد نهائيا من فكرها الحكم على نص إبداعي ما سواء حكم قيمة إيجابي (مدح) أو سلبي (ذم) طيب لكن الإشكالية ليست هنا فالإشكالية كل الإشكالية التي لا نجد لها حل غير تجاوز هذه المناهج (في حالة بلدنا الجزائر والمغرب) هي أن هناك شعوبا لا تحسب على هذه اللغة ولا على هذا الأدب التابع لهذه اللغة بالمرة، أي أن اللغة العربية دخيلة على مجتمعاتها الأصلية وبقيت هكذا دخيلة عليه نتيجة عوامل التاريخ كالاستدمارات المختلفة فلم تستوطنه لما استوطنته إلا وهي مُهجّنة وقد ضاعت هويتها الأولى التي دخلتها بها، إذن لا يمكن أبدا أن يقبل عاقل بأن يعلّم السي حميد لحمداني والسي محمد مفتاح والسي الدغمومي مصريا، أيا كان، من الجيل الحالي أو الجيل السابق النحو والترجمة، أبدا هذا غير مقبول بل هذا هو حكم القيمة البشع جدا لأنه بغض النظر عن الغرور والعصبية يتجاوز عرفا أخلاقيا وهو احترام الكبير والدا أو أخا.

ولعل العصبية وحدها، التي ميّزت نقاد المغرب والجزائر في هرولتهم* اتجاه المناهج البنيوية وتناوُل لحمداني لأساتذة مصريين وعرب قديرين متوسلا بنقد النقد على سبيل المثال لا الحصر، تاركين نقادهم أو حتى بعض النقاد الخليجيين الذين أبانوا ضعفا في بادئ عهدهم بهذه المناهج لدليل قاطع على النقص الذي استغلّوه بوصفة المنهج العلمي وليغطوا عن ضعفهم التاريخي؛ أولا اتجاه اللغة العربية، وثانيا اتجاه الإبداع الأدبي بها كنظرائهم في المشرق العربي، كونه إبداع غير مستقل عن البلاغة وقاموس معجمها اللغوي الذي له سياق يسري فيه، تماما كأثير الراديو بالنسبة للموجات الصوتية، وإن لم يجده ينقطع أو يضمُر متشوشا (التهجية، واللا مطواعية في تصويت مخارج الحروف والقصور اللغوي أو عدم القدرة على التعبير عن المعنى

المراد نتيجة الفقر المعجمي..) ولعلّ تجاوز المعطى اللغوي الذي هو بلاغة اللغة العربية وسياق التداول مقارنة باللغة الفرنسية التي فقدت بلاغتها منذ المرحلة الكلاسيكية والمرحلة التي عرفت بأزمة الوعي الأوروبي (1680- 1715) ولمّا جاء النقد الجديد في شقه الفرنسي جاء على حسب ما تفرضه طبيعة الأدب الفرنسي، وهذا النقد نقله ولم يتمثّله المترجمين المغاربة من هذه الناحية؛ من ناحية أن اللغة العربية لغة بلاغة عربية فالقول:" **لقد انصب اهتمام النقاد البنيويين على لغة الأدب، لأنها في نظرهم أساس تكوينه، ولم يهتموا في تحليلاتهم بالأفكار التي يتكون منها، ولا بالمشاعر والآراء التي يعبر عنها، بل اهتموا بالجسد اللغوي للنص الأدبي، وانطلقوا في مقارباتهم النقدية من منطلق اللغة، وليس مما وراء اللغة من عناصر لا ترتبط مباشرة بمادة الأعمال الأدبية، وقد وضعوا في حسبانهم تنحية البحث التاريخي في الأدب حتى يتفرغوا للبحث في عوامل أدبية الأدب، أي البحث في" الأدب كنظام أو بنية مستقلة بذاتها، لتحديد أنماطها المميزة، وكشف القوانين التي تتيح لها أداء المعنى**"[(26)] هو أولا قول فيه عدم تمثُّل نظري، أي يخلو إلى مزيد من الشرح والتفسير، فيه خلط أو يحدث خلطا بين مفهوم الشعرية الذي لديه معنيين: معنى بنيوي (اصطلاحي: poétique) ومعنى بلاغي سياقي، غير أن ما يجمع كليهما هو الفنية أو الصنعة في السرد.

فمصطلحي الشعرية أو الوظيفة الشعرية يتغير مفهومهما بحسب المنهج النقدي لأن البنيوية ترفض المعنى من اللغة والوظيفة هي أصغر وحدة سردية، ومن وجهة نظر لسانية الوظيفة وحدة محتوى، والملفوظ هو الذي يُركّبها وحدة وظيفية، وليس الطريقة التي قيل بها، حيث الانتظام بحد ذاته هو ما نسميه بشعرية السرد أو الخطاب السردي في المناهج البنيوية والشكلانية مع البنية السردية، وهو كذلك في شعرية البنية اللغوية السردية من أدنى مقطع في الخطاب اللغوي الذي هو الفونيمات إلى أعلاها وهي الجملة المفيدة (جماليات البنية التركيبية)، بينما البلاغة وجمالياتها هي ما نقصده بالشعرية في المناهج السياقية والبلاغية حيث نستبدل مصطلح خطاب شعري فيها بالتعبير أو النظم الذي يجمع جدليا اللفظ بالمعنى، وهنا جمال المعاني الجزئية في الجمل وأشباه الجمل مطلوب لحد ذاته، ولمّا كان الأدب فنًا مثل الرسم والموسيقى فإن جوهره الأسلوب وليس فنيات السرد Narratology، لأن الشعرية بالمفهوم

البلاغي التقليدي ترى أن شعرية الوظيفة البنيوية ماهي إلا فنيات السرد وهو ما أشار إليه أوّل من نظّر للمنهج البنيوي في العالم العربية العام 1966 وهو محمود أمين العالم جاعلا فرقا بين التعبير الأدبي وسر التعبير الأدبي (كطرائق السرد أو كفن السرد) بقوله: "**فقد نجد في الهيكلية (البنيوية) رغم مغالاتها الشكلية ورغم إغفالها لجانب الدلالة والمعنى في العمل الأدبي والإنساني عامة، إمكانية اكتشاف الكثير من أسرار التعبير الأدبي والإنساني**"[27]، فمصطلحي الشعرية أو الوظيفة الشعرية يتغير مفهومهما بحسب المنهج النقدي لأن البنيوية ترفض المعنى من اللغة، حيث الانتظام بحد ذاته هو ما نسميه بشعرية السرد أو شعرية الخطاب الأدبي، صبغة أداء الوظيفة: المحتوى في المناهج البنيوية والشكلانية، وهو كذلك في شعرية البنية اللغوية السردية من أدنى مقطع في الخطاب اللغوي الذي هو الفونيمات إلى أعلاها وهي الجملة المفيدة (جماليات البنية التركيبية)، بينما البلاغة وجمالياتها هي ما نقصده بالشعرية في المناهج السياقية والبلاغية حيث نستبدل مصطلح خطاب شعري فيها بالتعبير أو النظم الذي يجمع جدليا اللفظ بالمعنى، وهنا جمال المعاني الجزئية في الجمل وأشباه الجمل مطلوب لحد ذاته، ولمّا كان الأدب فنا مثل الرسم والموسيقى فإن جوهره الأسلوب، أي كيف نقول وليس ماذا نقول، وليس للكلمة أو المادة التي تحتل حيزا بنيويا الأهمية قبل جمالية الأسلوب الفني أبدا، فعند قولنا: ولمّا سالت بأعناق المطيّ الأباطح همَّ علي نُصْبَ عيني مركبٌ أسيان كأنه كان ينتظرني فغدوت معه في خبر كان، فهذا تعبير سردي شعري، المعنى فيه يفيض جمالا يشدّنا إليه قبل أن يشدُنا إلى أي تناص، وهو لا يعني في البنيوية شيئا غير ما تركه من آثار وخوالج نفسية تعود للكاتب المتوفي بالنسبة لها فتنفر منه إلى بساطة التعبير باللفظ إلى درجة الصفر كما في قولنا: خرج فلان من بيته صباحا متوجها إلى العمل، وإذا بسيارة تمر بسرعة على الطريق تدهسه، فبنية السرد وجماليته في نفس الوقت هنا هي تكامل بنيوي وظيفي لعناصر الحدث، الضمائر، المكان والزمان.

وإما ثانيا تمثُّل فيه شرح وتفسير مثل ما يقول به الزواوي بغورة:" **اللغة في محيط هذه النظرية شكل ونسق من العلاقات أكثر من مادة، إلى جانب كونها نظرية تأخذ باللغة إلى جانب التجريد والمنطق وتبتعد عن سماتها الجمالية، باعتبارها اللون الرياضي فإنها طرحت مفاهيم**

**جديدة في تقسيم الجزئيات النحوية**"[28] لكن عند النزع إلى التطبيق تظهر الإشكاليات منها عدم انسجام ما تطرحه قاعدة إهمال المعنى من اللغة مع نصوص عربية أصيلة.

ولعلّ الدليل القاطع الآخر على أن في الأمر استغلال ماكر لمقولة علمنة الأدب للتغطية عن ضعفهم اتجاه كل ما يفوح منه عطر أصالة اللغة والأدب لا هجونتهما هو أولا مذكرات التخرج في أقسام اللغة العربية وآدابها لأن أساتذتها (الذين لا أدري أقدرهم أن يلعبوا فيها دور حاميها حراميها؟) لوهم تيقّنوا أن الطلبة بخاصة (في الدراسات العليا) لا يمدح الضعف متوسلا بالمناهج السياقية أزاحوا البساط من تحت أقدامهم، وأزاحوه عنوةً واضطهادًا إلى المناهج البنيوية ثم يعمدوا إلى حصاره بعامل الوقت حتى يفعلوا به ما فعله لحمداني بنقاد الأدب العربي الحقيقيين في القطر المصري الشقيق. وفي الحقيقة أن هذا الدليل يخبرنا به ليونار جاكسون مؤلف "بؤس البنيوية" وكيف أنه ظهر مع بارت حين مناقضته لمفهوم الدالول/العلامة اللغوية في ألسنية دي سوسير؛ فحينما أراد بارث إثبات لا إنسانية الفكر البنيوي أي عقلانيته الصورية المجردة بالبنيوية السيميائية سقط في الخلط مع التصور الفيرثي الإنجليزي للعلامة وهو تصور إنساني: " **ويتبنى بارت في جزء لاحق من المقالة فكرة مختلفة عن علم الدلالة، حيث تكون الوحدات في مستوى أدني (أشكال) وتتكامل في وحدات أعلى مستوى (معاني)، وهذا لا ينسجم عملية مع التصور الدي سيسوري للدالول وينم على التأثير الذي مارسته بعض قراءات بارت الأخرى في الألسنية، فهو يقتبس هنا من بنفنيست، أما في التقليد الإنجليزي فإن هذا التصور هو تصور فيرث، وهو تصور ينطوي على خلط بين التركيب أو (النحو) وعلم الدلالة. ومن الواضح أن بارت يرمي شبكة واسعة بحثا عن الأفكار النافعة، إلا أنه يفتقر إلى الرصانة والإتقان الفلسفيين، وإلى التعمق في الألسنية، مما يحتاجه المرء لتنقية هذه الأفكار وبناء فكرة واضحة عن موقفه النظري. والنقاد الآخرين جميعا ليسوا بأفضل حال من بارت.**"[29]

أما الدليل الثاني فهو سوق مبرر العلمية وجعلها خاصية المناهج البنيوية وحدها دون المنهج التاريخي والاجتماعي والنفسي، التي طواها الزمن في الدراسات العليا عندنا بجامعات الجزائر الكبرى إلا ما رحم ربك مع الطلبة الذين يكون لهم ثقل في نسب أو وظيفة حكومية

مرموقة، حيث ترفض جميع مشاريع أطروحات ورسائل التخرج تحت هذه الحجة مضاف لها حجة أن يكون العمل المراد دراسته جزائريا، وحتى لو اضطر الطالب تكرار إعادة المشروع مشروعا وراء آخر فإن العنجهية والمغالاة ستوجهه إلى البنيوية التكوينية أو تفضل يا اللا مع السلامة تحت حجة علمية المنهج النقدي، فأيُ منطق هذا يا عالم. أولسنا بصدد منهج وضع لدراسة الأدب وليس لدراسة الظاهرة الاجتماعية أو الفلسفية؟ أوليس من المفروض إذن وبما أن هذا الأدب الذي هو موضوع تلك المناهج لم يصل العلماء والنقاد في العالم كله إلى تحديد ماهيته، وتجد جميع الأبحاث والدراسات تقارب دراسته باستعمال مصطلح "المقاربة" أي ليس هناك من ضمان في علمية مطلقة بإزائه أبدا، لعلاقة النظرية الأدبية بالمنهج النقدي وهو المتصل بعلاقة المنهج بالمذهب كما يقول الناقد صلاح فضل، من ثمة يجب أن تكون المرونة هي المصاحبة للأبحاث والدراسات النقدية الأكاديمية وليس الصرامة المُضطهِدة التعسفية:" **إن الفرق الجوهري بين المذهب والمنهج يتمثل في أن المذهب له بطانة أيديولوجية يصعب تحريكها، بينما المنهج يتكئ في الدرجة الأولى على مفاهيم عقلية أو منطقية يمكن حراكها وتغييرها، فيصعب على الأديب الذي يعتنق مذهبا أن يغيره بسرعة بينما يسهل على المفكر الذي يعتنق أو يقتنع بمنهج محدد ثم يجد فيه جوانب واضحة من القصور، أن يستكمله بقدر أكبر أو يعدله بمرونة أوضح**"(30)، فالمفارقة التي لا نجد لها من مثيل غير القول بالاضطهاد والعنجهية هو تكريس الأمر الواقع المر المتشنج للعقلانية الفرنسية/اللاتينية، وبأنّ هذا المصطلح "المقاربة" تجده أكثر ما يذكر يُذكر في مغرب الوطن العربي لا مشرقه، بالرغم أن الإصرار بترصد ودهاء ماكر وراء كل ما يفوح منه عبير الأدب قصد ضبطه بالعلمنة المنهجية هو غدا سمة من سمات النقد الأكاديمي المغاربي المعاصر وليس المشرقي لوجود شيء اسمه "الأصالة الأدبية" يَمِيزُ بينهما. ولابد أن تتعدى تلك المرونة بخاصة في الدراسات الأكاديمية إلى فتح باب المناقشة مع الطلبة في مثل هكذا إشكاليات على مصراعيه لا القول بالتطاول، فالتطاول هي ذريعة مذهبية منتشرة في محيط الجامعات الإسلامية في غزة وغير غزة التي تخشى من الحقيقة النقدية العلمية فتتذرع بالتطاول سائرةً على خطى الأصوليات.

ولعل أيضا واحد ممّن سلخوا أعمارهم بمبحث السيميائية عربيا وهو سعيد بنكراد، أراد وهو مستمر في إرادته ولم يقلع عن بحوثه ومنتدياته وخرجاته الإعلامية في الحيز الذي تشغله العلامة في النص وفي الكون، لكن ما وراء العلامة التي تشغل حيزا بنويا داخل النص والكون فأعمى عنها ومازال يقول لطلبته لا شيء موجود خارج ما نتلفظ به من خطاب/علامات؟ وتلك هي إشكالية الإشكاليات: الفكرة تسبق اللفظ أم اللفظ يسبق الفكرة؟ ليت شعري لو أن سياقا خاليا من العقل الجمعي مثل سياق حي بن يقظان رأى فيه من بعيد سعيد بنكراد يتكلم مع طلبته بتحريك شفاههم يفهم أن كل واحد يريد إفهام شريكه. هناك البصيرة أو عمق ذهني لأي علامة كونية بما فيها علامات التلفظ والوجهان الدال والمدلول لا يكتملان إلا ببعضهما، يستحيل سبق اللفظ والصورة للوجود كما يستحيل أسبقية الوجود للصورة معا، وهذه الإشكالية قد انتهى إليها عديد النقاد الباحثين العقلانيين المصريين دون دوغمائية تُذكر وتفرغوا لما هو أهم، منهم نصر حامد أبو زيد وسيزا قاسم التي يتطاول عليها لحمداني متوسلا بنقد النقد! وفروع التخصصات اللسانية والبنيوية كلها لا تستغني عن بعضها فهي مكمّلة لبعضها البعض، لكن ما ضر باحثين يكتفون بفرع واحد تحت حجة غير بنيوية وهي الخلط المعرفي المفضي إلى السطحية لا إلى التعمق؟ لو أنه تعمّق في اللسانيات العقلية قليلا: في القواعد التوليدية التحويلية والتداولية مثلا، هل سيمضي قدما فيما هو عليه من زواج صوري قسري مع السيميائية؟ والنتيجة التي تُخشى هو أن بنكراد مجرّد ناقد تفلسف وهو ليس بالفيلسوف؛ إذ به (أخشى أنه لم ينتبه إلا بعد فوات الأوان) كشخص /صورة وفكر قد بدأ منذ ذلك الحين يشغل حيّز معزول منطوي شخص/مادة يحمل مفاهيم غير منسجمة مع واقعها، وهي نتيجة وتطبيق بنيوي علاماتي ـ انجلى عفويا ـ أي شكّل هو كشخص في الوجود موضوعا لبحثه كبناءً علاماتيا حيث لا عزلة ولا تناقض في مبدأ الكوجيتو بين الفكر والوجود: أنا أفكر إذن أنا موجود. وهو في الحقيقة (نرى أنها الحقيقة بمبدأ عدم التناقض) دلّ على معنى واحد هو تعصب غير معقول للمفاهيم السيميائية المجرّدة التي يحمل، ولعل الوعي بهذه الإشكالية السيميائية في حيزها الأكاديمي قد بدأ يتشكل فعلا عند الناقد السيميائي الجزائري أحمد يوسف، فتبنى مشروعية التساؤل النقدي القائمة على تجاوز ثقافة التبعية النقدية للمنجز الغربي فكانت

دعوته سعيا لبناء منظومة تفكير نقدي سيميائي تتحرك ضمن خصوصية السياق الثقافي العربي عموما والمغاربي خصوصا.

ولا يمكن القول أنّ دي سوسير خلال قوله بنظرية تغير اللغة ولا معياريتها، بل المؤكد كما رآه هو في بنيانها الآني، لكن أطُرح السؤال: هل كان للفيلولوجيا/فقه اللغة دور إلى ما وصل إليه دي سوسير أم لا؟ نخشى هنا أن دي سوسير وهو يكتشف ما اكتشفه كان أمام ظاهرة فيلولوجية معاصرة أيضا لم تروقه وهي تفوق اللغة الإنجليزية بإرثها الأدبي على اللغة الفرنسية برغم مجهودات التقعيد والنحو، ومنافسة الألمانية والإسبانية القوية لها لأنه كان ممتعضا في دراساته التاريخية المقارنة من انغلاق اللغات الكبيرة على أنفسها ومباهاة كل واحدة بأنها أفضل مما سواها، لذا بدأ على خطى اللغوي المقارن الإنجليزي ويليام جونز (1746 ـ 1794) وفرانز بوب (1791 ـ 1867) وفريديريك وولف (1759 ـ 1824) الألماني مؤسس الفيلولوجيا في دراستهما للسنسكريتية تأخذ طابع الغيرة، لذلك وجد فرصة لا تعوض لتجاوز ذلك التفوق بمبادئ جديدة "علمية" تميز اللغة وتقطع وضع تاريخي كان لا يُرضي الفرنسيين عموما، والذي يقال عن استغلال دي سوسير لفرصة الفيلولوجيا والفيلولوجيا المقارنة لاكتشاف علم اللسانيات/الألسنية يقال عن انتهاز علماء ونحاة ونقاد المغرب العربي لفرصة للسانيات والبنيوية هرولةً قبل غيرهم من العرب لأن تاريخهم اللغوي والأدبي ضعيف مقارنة بازدهاره مشرقيا، وفعل الهرولة غي الواعية لا ينم عن غِيرة لكن عن احتقان طويل للنفس من جراء احتقار طويل وإهمال لمدونتهم الأدبية والنقدية إن وجدت.

ثم ما هي آليات التحليل الشكلانية البنيوية التي غرتكم إلى هذه الدرجة، أوليست غير آليات جافة صماء تتلاعب بالدلالة وتقلبها كما يقلب الجائع مائدة عامرة بأنواع الأطعمة ولا يستهدف منها شيئا معتقدا أن بعضها فاسد، فأين الفائدة العلمية؟ ويحَكُم إنكم لم تصيبوا جوهر الأدب بعد أربعين سنة ضياع وتيهان عن جوهره وهو المعنى الجميل!! لا بد وأن تذوق وتحكُم حُكم قيمة وإلا مت من الجوع، ثم أوَ يجوز أن يقول الابن الصغير لوالده وشقيقه الأكبر أنا أسبق منكما لِثقافتنا وأصالتنا؟! نفس الشيء ما عمله لحمداني مع النقاد المصريين روادا أو تلامذتهم في كتابيه "سحر الموضوع" و"بنية النص السردي" باسم نقد النقد! وقلده في ذلك

أغلب نقاد المغرب والجزائر الذين جاءوا بعده بل حتى المتخرجين الجدد من صبية وذرارٍ لا يعرفون معنى كلمة أدب حق المعرفة لكنهم ساروا في هذا المسار أيضا فلبئس ما أنتم فيه من عمى وعدم اكتمال كفاءة، فمصر بالنسبة لجميع الدول العربية الأخرى بمكانة الوالد أو الشقيق الأكبر، إذن حاكِم نفسك وتواضع قبل أن تحاكِم غيرك، وبينهم وبينك ليس قيمة حُكْم أو حكمين بل قيمة نصف قرن من الأدب الراقي، بإيجاز عاش من عرف حق قدره.

في كتابه "سحر الموضوع" يعتبر لحمداني الوظيفة البنيوية غدت في حكم بلاغة النقد الجديد المتمثل في المناهج البنيوية لتقابل البلاغة في التراث السردي العربي القديم، البلاغة التي لم يعد لها أولوية في اللغات الأوروبية منذ نهاية العصر الرومانسي على الأقل عكس اللغة العربية التي مازالت مُحتفية مُتمتّعة بها، تنفذ إلهيا تارة من الباب الديني وطورا من باب غير ديني أي نقدي وسردي أدبي محض، فمدعٍ من يقول أن البلاغة لغة التراث الإسلامي لأن هناك تراث غير إسلامي في لبنان بيد أن اللبنانيين كان لهم دورا بارزا في إحياء الموروث السردي البلاغي العربي نثرا وشعرا ونقدا واهتماما غير منقطع بخاصية مرونة العربية بلاغة وبيانا نتيجة تنوع معجمها ودلالة فيض المعنى الزائد المنجر عن مرونة النحو وقاموس الصرف، كما أن هناك تراثا إسلاميا في المغرب العربي بيد أن المغاربة هم أول من ازدرى من النقد التقليدي وسعى لاستغلال فرصة النقد الجديد جهدهم، بل إلى حد السخرية ذهب حميد لحمداني في كتابه "سحر الموضوع" الذي يلخص فيه ردا مبطنا لانتهاء دور المناهج المعيارية في النقد الأدبي، ذلك لأن النقاد والأدباء العرب المشارقة سبق وأن امتعضوا من ضعف الأدب المغاربي، وكأن لحمداني يرد في كتابه هذا عليهم ردا مبطنا لأنه يتعرض لنقدهم الأدبي الغير الصافً تأثره بالمناهج البنيوية، بل فيه جانب نسبي من ما يعتبره سحر الموضوع أي سحر البلاغة التي يسخر منها لحمداني متوسلا بنقد النقد، على أن كلمة "سحر" تومئ إلى الزيغ عن موضوع اللغة وهو النظام اللساني للغة، وليس الخطاب البلاغي، ولا التخييلي ولا تداوليات اللغة التي هي من مخلفات مناهج بلاغية قديمة أولت الاهتمام بالمعنى المتعدد المرادف في الاستعارة ظاهرا أو مستترا وتركت وظيفة النسق في اللغة، وهي الوظيفة العلامة ليست ذات جهوزية في تسبيق معنًى جميل، هي إذن لا تعتري دراستها للأدب دراسةً علمية

أيديولوجيا مضللة ولا أوهام بلاغية سحرية من ذلك الاستعارة حتى غدت مرادف لمعنى الأسطورة، كونها تجذب جذبا جماليا سحريا متلقيها لا جذبا جماليا عقليا.

نخشى أن ما شاب المناهج البنيوية من غموض وما تولد عنه من أزمة لا ينفصل عن غموض وأزمة الفكر الماركسي المذهبي نفسه، وأزمة هذا الأخير لا تنفصل أيضا ـ بنظري ـ عن فكرة صراع الشر ضد الخير. وسيفهم معنا القارئ لماذا شغلت البنيوية مؤسسات ونخب الأنظمة الماركسية أكثر من غيرها بل راحت تدافع عنها بكل قوتها، إنه المذهب الذي قام أول ما قام على وعي شرقي بفكرة الأنا والآخر وهو وعي نفسي لوجود الآخر الغربي المتقدّم عليه (أو الغني) أي تقديم فكرة الذات والآخر لوجود خلفية نفسية لم تهضم معايشة تقدم الآخر وتراجع الأنا تاريخيا، وفي محاولة المذهب الاشتراكي اقتصاديا والفكري عقيدةً ماركسية وكأنه لابد لإثبات ذاته من إقصاء الآخر إقصاءً كليا (وهي البذرة التي ستكون سببا في زواله) ففكرة الجدلية المادية جاءت لتقدم لنفسها ـ بالطبيعة البشرية ـ موازاة مع تفحيم المقولة العقلانية الرأسمالية الحرة لإلغائها كما ألغى الفكر الديني الإسلامي الآخر بإطلاقية تامة، وكلمة حر/ليبرالي هذه لم تفهم فهما جيدا لدى رواد هذا المذهب الماركسي في نظري، وجوهرها هو نفس جوهر الماركسية، وهي المقولة التي تقول **بقدر ما تعمل (تنتج) تأخُذ**، اهتدت إليها بما يقابلها عقلانيا أيضا وهي فكرة صراع الطبقات أو الجدلية المادية وما أتت به من مبادئ عقلانية هي نفس ما جاءت به الرأسمالية الليبرالية وهي **بقدر ما تعمل (تُنتج) تأخُذ**.

إذن الإضافة العقلانية التي جاءت به الماركسية عن الرأسمالية لم تكون إلا الجاهزية في الطرح المعارض، فتحْتَ خلفية الأنا المتعالي تُولَد أيديولوجية المذهب وتُسبَّق أصحابَها وتُعلي من شأنهم؛ أي جاءت باصطفائية جديدة تقوم على الحرص على أيديولوجيا الذات[31]: بقدر ما تعطِي تأخذ لكن بتقديس المذهب وبممالأة الذات وتملقها؛ يعني المفروض مقولة بقدر ما تعطي تأخذ لا يُكمِّلها إذا ما نَقُصت غير الطرد والعزل كونه إجراء منطقي وعقلاني وديمقراطي وعادل في نفس الوقت حرصت عليه الرأسمالية (وهي نفس العدالة التي يتغنّى وما زال يتغنّى بها هذا المذهب كثيرا لكن منكّهة ببهارات الذات دوما) لكن في حالة الماركسية إذا ما نَقُصت المقولة كأن لم يعطي الأستاذ الجامعي عملاً ولا إنتاجا يستحق عنه راتبا ضخما يتقاضاه شهريا

فيلجأ إلى التغطية عن النقص في العطاء/العمل بالتملق والممالأة رتبة لرتبة أعلى منها: الطالب الذي من المفروض أن يحتج ويطلب بمفتشين يجد ما هو أسهل وهو أن يُمالئ أستاذه ليأخذ، وقد كانت اللجنة المشرفة على قبول بحوث ASJP للنشر وقبل قبول بحثه تبحث أولا عن هذا الاسم الذي بعث لهم بحثا جيدا جدا (لكنه جريء بعض الشي) تُراه دكتور أم لا؟ له جاه ونفوذ أم لا؟ فإذا أيقنت أنه مجرد باحث عادي لمرحلة الماجستير أو يحضر الدكتوراه فإن "الجيد جدا" تذهب في ستين داهية أمام الجرأة البحثية.. وقد كان أستاذه نفسه غضّ الطرف عن رئيس القسم الذي لم يلج مكتبه لمدة طويلة، وهذا الأخير كان مالَأً الوزير المُقصّر، والوزير المقصّر الرئيس، وهكذا..

تقف ذاتية هذا المذهب الذي وُجد أصلا كرد فعل تشنجي عصبي غير مدروس دراسة عقلانية من شأنها وضع أيديولوجيا العقل المرتبطة بهما عندنا بمعشر الماركسيين وما تبقى منهم من شيوعيين ويتوبيته Utopique المرتبطة بالأصوليين الإسلاميين في مكانهما الطبيعي بالنقد أي عزلهما عن خدعة أو وَهْم العقلانية التي يتشدقون بها، يجدر الذكر **أن النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت قامت بتوجيه انتقادات جذرية وعميقة للمفاهيم والقيم التي تأسست على العقلانية والحرية والتقدم العلمي والتقني وما ارتبط بها من نزعات وضعية وعلموية وتقنو علموية**[32]، يقصد بالعلموية العقل المثبط أيديولوجيا مذهبيا (الماركسية) وماديا (العقل الأداتي الفرنسي) وهي ذاتية للأسف تستثمر ومازالت فيهما معا بمقولة تقع في هذا المضمار، وهي مقولة قيِّمني في النظام المؤسساتي أو في النظام الأدبي العام وهو يريد بها معنى مجازي وهو امدحني بدون عمل أقدمه، تملّقني لأجل ما أحمل من درجة علمية أو إن لم يكن فلسني الأكبر من سنك تزلّفني، مع العلم أن الإسلام قال باحترام الكبير بتحية السلام وليس "بالتقييم" فهو ضد تسعير الخد للناس مهما كانوا، وعلى هذا الأساس **مع اختفاء الماركسية من مواطنها الأوربية الشرقية، يبرز سؤال قاتم: هل شكّلت الاحتجاجات الراديكالية نظرية في الأدب جدية في أي يوم من الأيام؟ وهل حاولت يوما حتى محاولة (كما يفترض بنظرية جدية في العلوم الاجتماعية) أن تفسر كيف يعمل الأدب؟ ألم تعمل بالأحرى على استخدام الدراسات الأدبية، والسينمائية، والثقافية، في بناء إيديولوجيا ذات أصداء نظرية**

**هدفها معارضة الرأسمالية، والميتافيزيقا الغربية، والعلم؟ إيديولوجيا الانشقاق الفكري الغربي، التي كانت قوية فعالة في الستينيات، لكنها بدأت الآن تخبو وتعتق وتبدي رثائيتها؟**[33] وقام إذاك ألتوسر لما انطلت عليه الحيلة محاولا إنقاذ ما يمكن إنقاذه بعلمنة الماركسية **بالتّخلي عن التصورات الأيديولوجية في النظرية الجدلية المادية لصالح أيديولوجيا جديدة وهي أيديولوجيا النزعة الصورية أو نزعة الاغتراب النظري بإدخال مفهوم النسق أو الانتظام في الخطاب عليها.**[34]

**الخاتمة:** كانت البنيوية الفرنسية بمثابة انتكاسة للعقل بالوَهْم والذاتية معا، ولعلنا نستشف ذلك ـ ومن دون مقدمات ـ من خلال قول أستاذ الدراسات العليا لطالبه: لك تعبير وتحكم في اللغة جيّدين ولكنك انتقصت المنهج حقه! إن في هذا المنطق حكم ذاتي (حكم قيمة ووهْم واستغباء) لأنه أولا أهمل ما يقوم عليه جوهر الأدب والنقد فالذي يتحكم في ناصية اللغة لا يعلى عليه في هذا التخصص لكنه في الحقيقة يريد الانتقام منه حتى بالاستغباء لأنه لم يتملّقه أو أخلف وعده مع أيديولوجيا العقل مدركا لعقلانية الفضيلة، وكل هذا لا نجده في عقلانية الأنجلو سكسون الليبرالية والإنسانية لأنها مُجاوزة للأيديولوجيا، فكان أن مثلت سلوكيات منتسبة للعقل أيديولوجية غير سوية، فضيحة للعقلانية وانتكاسة تكسبية مُعلية لأيديولوجيا الذات محقرة للآخر بالرسوخية الثقافية ( وبالمناسبة فإن أي عقل/ إنسان بمجرد أن يقوم مخاطبا عقل/ إنسان آخر أنا أفضل منك فهو قد غَبَّر مثل ما يقول المثل الجزائري أو راح في ستين داهية مثل ما يقول المثل المصري) ولمّا كانت تلك الفضيحة بنيوية يعني ملتبسة بمقولة العقلانية المشار إليها أو قولة الباطل التي أريد بها قولة حق فإنها دامت متخفية غامضة ملتبسة هذا المدة كلها ( بمعونة نخبة مثقفة وأكاديمية ماركسية) ما يقارب الأربعين سنة تطبيقاتها العملية الفاسدة المناقضة لنظرياتها البراقة الشعاراتية عندنا في الجزائر وحتى مصر وسوريا والعراق بدرجة أقل.

دائما طوية الإنسان لا تبدي المساوئ ولا المحاسن لكن عدم كفاءة المرء تجعله يقرأ الطالع أو المظاهر، وتتضح بكل يسر في ثقافة العذر وقد تعوّد وتربى بل تعلم وتثقف الأستاذ الجامعي عندنا على مذاهب المادة، فلم تقم حياته كلها إلا على التفاسير المادية؛ إن رأى شخصا ضامرا

نائم العينين قال عنه كسول مهمل وإن رآه بدينا كثير الشطط قال عنه هذا مجتهد، وفي كلتا الحالتين قاسَ تصوره على الفكر المادي أو البنيوي الذي كما يعلم غير المنتسبين لتخصص الدراسات النقدية أن النقد الأدبي المعاصر كله جُعل لا يساوي شيئا بدون الفكر البنيوي (المادي النزعة: الدلالة أو الفكرة تتضح من تقليب علاقات عناصر البنية بعضها على بعض أو مع بعض) وهذا التفسير للعالم بعين المادة إنما ينم إذا ما نم عن أن صاحبه ـ الذي مازال يصرح لطلبته تضليلا واستغباءً أن النقد البنيوي يهمل كل العناصر الزئبقية والأدب نفسه لا يضاهيه في زئبقيته مضاهٍ ـ ذو علاقة مضطربة بالأدب لا يقيم وزنا لشؤون العاطفة والذات فيه، برغم كل ما لحق من الفكر/النقد البنيوي في العشرين سنة الأخيرة من ضربات موجعة ضربة تلو أخرى حتى غدا يعيش سنواته الأخيرة أمام النقد الثقافي وتحليل الخطاب ونقد جماليات الاستقبال إلا أن أصحابه بجامعتنا "الأم" مازالوا متعصبين لمن يحملون إبداعا وذوقا للأدب في أنفسهم، النسبة القليلة تعلم ذلك وتتعصب للعلم من هاجس يعتريها ضد القيم الدينية، والنسبة الأكبر تعلم وتتعصب ضد البلاغة العربية بالتماس هاجس الجهوية أي لديهم هاجس جماليات التطبع من بلاغة وفصاحة والتي قد تكون إذا ما اقترنت بالإبداع أو تذوق لمسة الخيال الفني قمة ما يميز الأدب العربي (وهي كلها غير جماليات الشكل أو جماليات الوظيفة الشعرية في المناهج البنيوية) كون أن المتمكنون المتذوقون للأدب أناس ريفيون بدويون سنة الله في خلقه.

وتغطي على ذلك بذريعة أنّ لا ذاتية ولا ذوق مع المناهج العلمية، هذه التغطية سرعان ما تظهر سيماتها على شكل الأستاذ: سيمات تستطيع أن تقرأها بكل سهولة على أنها من دلالات اللا نزاهة، واللا نزاهة من دلالات اللا موضوعية؛ فالمنهج البنيوي السيمياء أو السيميولوجيا كما تسمّى في الطب وعلوم المادة من المستحيل أن تعزل دلالات ومعاني الوحدات الوظيفية نقيةً غير مُمتزجة بخلجات نفس صاحبها في الأدب، بينما في الواقع المحسوس يمكن بكل سهولة استنتاج أن علامة الالتهاب وجود البكتيريا، وأن علامة الأستاذ الذي لم تغادره علامات النوم من انتفاخ العينين وتعب يرافق الكلام وهو على مقعده أمام الطلبة بأنه قد سهر حتما سهرا فيه سمر وترويح عن النفس (لذة)، والعاصميون أغلبهم لا يحملون هذا الذوق (نقيس

على العام وليس على الخاص) لأنهم من سكان العاصمة، تجدهم يجيدون الفرنسية كما يجيد البدوي والريفي اللغة العربية ويعاملون الموقف بوجهين، فلو تنقلنا إلى أقسام اللغة الفرنسية بجامعة الجزائر 2 لوجدنا أساتذتها يوظّفون شيء اسمه البلاغة وتذوقها في الفرنسية ساخرين ممن لا يحوزها قائلين له: إن الشيء الأساسي في اللغة هو قواعد النحو والمعجمية الواسعة حتى تتاح لصاحبها بلاغة! ولا تسمى هذه الثقافة بثقافة الفساد أو المعاملة بوجهين أو الأيديولوجيا حتى نكون دقيقين بل تسمى تشدقا واحتقارا نفسيا تاريخيا للآخر، أو بعبارة جامعة تسمّى العنصرية، عنصرية التفوق بالقوة على الآخر. إذن ما أحوجنا إلى انتظام العلاقات البنيوية في تفاعلات واقعنا المادي والأكاديمي بالأخص، بضرورة أن يكتفي كل عنصر/أستاذ فيهم بالسهر على ما هو وظيفي ولا يتعداه إلى ما هو ذاتي شعوري، ولعل الغرب لم يصل إلى ابتكار الحداثة والنظرية البنيوية لولا أن لغويوه وأساتذته نهجوا منهجا بنيويا أولا على مستواهم السوسيو ـ ثقافي حتى يعزلوا حكم القيمة الصادر من الذوات إزاء بعضها أثناء البحث، وعدم قدرتنا على كبح جماح الذاتية لتغدو أيديولوجيا بعضها ظاهر وبعضها مضمَر في مؤسساتنا التعليمية لأنها تتأسّى من الأيديولوجيا الدينية التي تخلّص منها الغرب أثناء القرون الوسطى بإقرار الحرية الدينية والفصل بين الدين والدولة. دليلنا على ذلك هو التأمل قليلا في ذاكرة الكاتب/ الناقد التي هي نتاج تفاعلات الواقع مع ذلك تقيم "مسافة" مع المتخيل ونقد المتخيّل على حد تعبير عبد العزيز حمودة، وهي غير زمن الكتابة:" **الكاتب ذاكرة أخرى تقيم المسافة مع المتخيل، تتعامل معه، ترى فيه وتكتب منه، لهذا المتخيل زمن تكونه وللكتابة زمنها المختلف، وبين الزمنين تستمر علاقة الفرد بالواقع المادي من حيث هو حضور فيه، في نظام العلاقات فيه، أي فيما يحدد له موقعا يحكمه ويتجاوزه كفرد**"[(35)]

وهناك من النقاد الأكاديميين جدد أو مخضرمين على غرار يوسف وغليسي مثلا وعثمان بدري لم ينقطعوا لحظة عن مدح ومُمَالأة المغربيين بشكل مفرط، لما استقبلوا النظرية النقدية الجافة الغربية بعواهنها فلم يشذبوها ويدخلوا عليها شيء من ثقافتهم قط تحت حجة تنم عن عدم الأصالة وعدم تقدير للتاريخ النقدي والأدبي الذي بلغه مشرق الوطن العربي، فتلامذة ذلك النقد و الأدب لا بل حتى رواده كانوا في المغرب العربي بعد استقلاله يعلمونه العربية؛ ثم إنه

لو لم يكن التفسير التاريخي للأدب هو الغالب المعمول به لما جيء بالبنيوية، فالبنيوية التي أهملت السياقات التاريخية جاءت على أنقاضها وتلاشت رويدا رويدا تحت ضربات رياحها، هذه الشماتة لم يتفطن إليها هؤلاء النقاد المحسوبين على النقد العربي تطفلا إلّا بعد خروجهم من تحت تأثير نشوة الانبهار بالفكر البنيوي مؤخرا انبهارا من ليس له أصل ولا فصل يرجع إليه يقيه من عمى البصيرة، وهو في هذه الحالة لا يمكن أن يكون غير التراث الأدبي السردي والنقدي الأصيل الشاهد كما يشدد عليه كمال أبو ديب بقوله:" **وسأتخلى هنا عن فضيلة التواضع التي أنا واثق أن العالم العربي لا يقدرها على الإطلاق لأقول: إن هذه التنمية (يقصد تنميته لمنهج بنيوي خاص به!!) وصلت لمرحلة تجاوزت بدرجات كثيرة جدا ما أنجزه الفرنسيون أو ما أنجزه الدارسون الأوروبيون. قد يكون الإنجاز الرئيسي لهذا النمط من العمل هو التركيز المطلق على التجربة الإنسانية، على الرؤية الإنسانية في النهاية. فأنا لا أدرس نصا بالطريقة التي يحلل بها رولان بارت مثلا نصا، وإن كان ثمة تشابه على أصعدة معينة بين نمطي الدراسة، بل أدرس نصا باحثا عن التجربة الإنسانية، عن الرؤية الإنسانية التي تسكنه. وإنني إذ أفعل ذلك فإني في النهاية أحاول أن أطور المنهج النقدي الذي يستطيع أن يكشف علاقة النص المدروس والتجربة مع العالم الخارجي، أي علاقتنا بالمجتمع وبالصراعات التي تدور فيه، وبكل أبعاده المتعددة. من هذا المنظور يبدو لي أن محاولة الربط بين العملين يلغي الحكم الذي يصدر عن التصور المسبق أن البنيوية هي ما أنجزه الفرنسيون**"[36]، ثم إنّ هؤلاء المشارقة برغم هذه الشماتة ربتوا على كتف الشامت بيد العاقل للأحمق أو الكبير للصغير، ويكاد لسانهم ينطق لولا الأصول: إذا أكرمت الكريم ملكته وإذا أكرمت اللئيم تمردا. وخلاصة الخلاصات أن البنيوية كفكر وكنزعة علمية حداثية هي في هذه المرحلة مازال ينظر إليها في المشرق العربي على أنها نزعة إشكالية انتكاسية للحضارة أكثر منها إضائية لا بد من التعامل معها باحتراس ويقظة تامتين، بينما ما زالت تضطهد الأدب والنقد الأدبي في المغرب العربي وبنسبة عالية. إذ بالوصف والتحليل التاريخي المقارن أجلى بحثنا عن عدم استيفاء مدونة الجزائر النقدية الأكاديمية خاصة والمغرب عامة بشرطي المناهج البنيوية ـ المتطورة عن المناهج الشكلية والألسنية ـ الأكثر من ضروريين لجعلها مناهج لا يعلى عليها في النقد الأدبي الأكاديمي وهما: أولا تسبيق المعرفة الجيدة باللغة العربية نحويا

ومعجميا وسياقيا أيضا أي الاطّلاع المُقنع بتراثها دون بُغض وثانيا المساواة بينها وبين المناهج الأخرى، لا إكراه في النقد فقد تبين الغي من الرشد فيه، وإلّا فإنه تعصب أعمى لها. فإذا كان إدراك عقم البنيوية لدى النقاد العرب المشارقة ومنذ مناقشات الثمانينات المثمرة حولها في المجلات النقدية الأكاديمية كمجلة فصول والغير الأكاديمية كالمعرفة منطقه شكلي مضموني محض؛ إذ محاولات تجنب المثالية أسقطتها لاريب في أيديولوجية الاغتراب الصوري، فإن إدراك المغاربة لها بقي لغويا ألسنيا ولم يطرح إشكالية الأدب بحكم أن المدونة الأدبية لديهم هزيلة مجانبة للجماليات التي تنبض بالخيال والبيان العربي المخلص في جزالته وبلاغته لتراثه، والتي من شأنها وحدها أن تجلي عمق معرفي ومضامين يمكن إدراجها في خانة الأدب نثرا وشعرا.

تعلو البلاغة في الأدب ونقده عن غيرها من المناهج البنيوية سواء نقضا في المغرب العربي أو تكملة في مشرقه، فصاحبها مغمض العينين يأتي بآلياتها وإجراءاتها أما العكس الساري في الدراسات العليا الجزائرية (الأكاديمية) فغير صحيح بالمرة، وهو لا يغدو أن يكون تعسفا واضطهادا للقوي بشهادة ومركز رسمي على القوي بحجة ومنطق أدبي ونقدي.

---

(*). باحث في تحليل الخطاب الثقافي، الجزائر.

**.حتى لا نُلقى بتهمة عدم العلمية أو عدم احترام خطوات المنهج (نقد النقد أو التنظير للبنيوية) نقول أن هذا الكلام يمكن إدراجه في مقال علمي إعلامي وقد استعار خطوطا عريضة من منهج نقد النقد الأدبي وهو **الوصف التحليلي** لمبادئ ومنطلقات النظرية: هل احترم المنهج إجراءاته على المدونة التطبيقية أم اجتزأ واختزل وتحايل؟ فالبنيوية كمنهج ومدرسة فكرية ليست حكرا على زيد أو عمر من العلوم. والإعلام كما هو معلوم هو العلم الوحيد الذي ليس له موضوعه الخاص.

(1). كارلوني وفيللو (1963)، تطور النقد الأدبي في العصر الحديث، ترجمة جورج سعد يونس، بيروت: دار مكتبة الحياة، ص42.

(2). ينظر : الفصل الأول : الدراسة النظرية، بحث نظري حول الأسلوبية دون اسم صاحبه ومتيسر على الشبكة العنكبوتية، ص5.

(3). جبرا إبراهيم جبرا (1988)، الفن والحلم والفعل، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط2، ص102.

(4). صلاح فضل (1989)، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، القاهرة: دار الشروق، ص142.

* . قبل أن أورد مواقف نقاد والأدباء لابد أن أؤكد تأكيدا وبالدّارجة الجزائرية لألفت القراء والمختصين معا إلى صدقية ما أقول: **راه مكاش**

**علم مطلق في الظاهرة الأدبية أو في النص الأدبي، مجال، لأن طبيعته النفسية والجمالية والجدلية ما تسمحش وعلميته الحقة: علميته ثم علميته في التواؤم والانسجام مع طبيعته هكذا هي طبيعة الجدل؛ الطرف فيه لا يساوي شيء دون نقيضه، وراه اللغة والأدب الفرنسي شيء واللغة والأدب العربي شيء آخر والتي مازالت تحتفظ بحيويتها واستقرارها. وإذن هذا التماهي الأعمى إذا راه موجود في أقسام اللغة العربية ومستمر بخاصة المغاربية (القول بتطور اللغة وعلمية النقد المطلقة) فلأنه أصبح مضمرا من المضمرات الثقافية ومسكوت عنه ومقدروش يغيروه: أصحابوا عارفين أن المناهج البنيوية في النص الأدبي راهي ما تصدقش إلا بنسبة معينة، وراها غرقت قضيتها في جدلية ممرضة (كي الدجاجة الأولى أو البيضة؟) ولكنهم مع ذلك يتغاضون عمدا لأن الأمر يمسهم في كرامة هويتهم بشكل أو آخر، وهم يحاكون تقريبا قضية**

**الديمقراطية مع السلطة وقضية الإرادة الحرة مع الدين في عالمنا العربي، ولعل الاطمئنان وعدم القلق حول ما يمكن أن تفرزه الإشكاليات المنجرة بل وتهدئة خاطر كل من يحاول رفع وتيرة النقاش حولها عندنا بالجزائر أو الدفع بمشروع بحث فيها إنما يعكس المستوى الحقيقي المتواضع المؤثر لمورد الرزق عما سواه.** والناقد يوري لوتمان نفسه كرائدا بنيويا يؤكد: " **لابد من أن يدخل في النقد قدر من الحس الفني، ويتطلب العديد من الأشكال التي يتخذها النقد مهارات فنية وأسلوبية"** ينظر يوري لوتمان (1995)، تحليل النص الشعري، ترجمة محمد فتوح أحمد، القاهرة: دار المعارف، ص171. ناهيك عن معشر الأدباء والشعراء المعاصرين الذين يقول أحدهم :" **إن الموضوعية المطلقة في الأدب شيء مستحيل. ولا يمكنني أن أتصور الناقد أنبوبا في مختبر، أو عدسة في مجهر لا تنفعل بما ينطبع عليها من خطوط وظلال. لا بد لنا أن نحب أو أن نكره، أن نقبل هذه اللوحة أو أن نرفضها، أن نبارك هذه القصيدة أو نلعنها. أما الوقوف في منتصف الطريق، كأجزاء سيارة مفككة، مختبئين وراء قناع موضوعيتنا فهو إلغاء لإنسانيتنا وحرية اختيارنا، وهبوط بنا إلى مستوى الحجارة والطحالب..** نزار قباني (شباط 2016)، معركة اليمين واليسار في الشعر العربي، المعرفة، العدد 629، ص 228.

[5]. ماجدة حمود (1997)، علاقة النقد الأدبي بالإبداع، دمشق: منشورات وزارة الثقافة، ص12.

[6]. زكي نجيب محمود (2020)، قشور ولباب، القاهرة: مؤسسة هنداوي، ص40.

[7]. عماد محمد (2010)، اتجاهات الصفحات الأدبية في الصحافة المصرية في العقدين الأخيرين من القرن الماضي صحيفة الأهرام نموذجا، رسالة ماجستير، جامعة عين شمس، من المستخلص.

* . **والفلسفات مهما تعددت فهي تنحصر في مجموعتين نسبة إلى مصدرها فهي إما أن تكون ذات مصدر إلهي كالأديان السماوية وهي تتساوى في إيمانها بالله الخالق للإنسان من روح وجسد وإن كانت تختلف فيما بينها نسبة إلى المكانة التي تُعطيها لكل من الروح والجسد. أو أن تكون ذات مصدر بشري (أي وضعها البشر) وهي الأخرى تتدرّج من الإلحاد ونكران وجود الخالق إلى ما يسمونه الحق المطلق أو القوة المطلقة، وتقوم هذه الأخيرة على تعظيم المادة والجانب المادي في الحياة ولهذا سميت بالفلسفة المادية.** ينظر مفيدة محمد إبراهيم (1999)، عصر النهضة العربية بين الحقيقة والوهم، عمان: دار مجدلاوي للنشر، ط1، ص10.

[8]. مجموعة من الباحثين (2007)، علم لغة النص نحو آفاق جديدة، ترجمة سعيد بحيري، القاهرة: مكتبة زهراء الشرق، ط1، ص16 - 17.

[9]. ينظر زياد بوزيان (2018/11/9)، قيّم الإنسان بين الزمن الجميل و زمن الشّدة، دنيا الوطن، العنوان : https://pulpit.alwatanvoice.com/content/print/477350.html

ولما انتسبت إلى كلية الإعلام وكان ذلك قبل ولوجي إلى الأدب العربي بدأت ألاحظ أن الصحافة تدرّس في الجزائر باعتبارها علما اجتماعيا كما في المدرسة الفرنسية، وتوصلت إلى ذلك بحدسي بعدما قارنت المستوى اللغوي الراقي للصحافة المصرية خصوصا والمشرقية عموما مع نظيرتها الجزائرية فأوليت اهتماما أكثر بالموضوع لمّا علمت أن الصحافة في المشرق العربي تنضوي ضمن العلوم الإنسانية كما في المدرسة الإنجليزية حيث تبقى القدرة على الإبداع في اللغة وبها أهم ما يمكن أن يميّز معلومة صحفية عن أخرى وليس القدرة على الوصول إلى مصدر المعلومة وإخراجها للعلن معنًى (حتى ولو كان ذلك المعنى يحرص على التوصيل بأي لغة ممكنة حتى تلك الغير مصنّفة) ومنذ أن ألفيتهم يقولون **المهم هو توصيل المعنى** مازالت في حدس محيّر، بأن المدرسة المعرفية الإنجليزية أحق مني بالتحصيل المعرفي من المدرسة الفرنسية، وهو بالفعل ما أيقنته بعد أن توغلت في استكناه خصائصها التنويرية ذات البعد الإنساني الخالي من الصنعة التي تتبجح بها أيديولوجية العقل التجريدي الفرنسي، لكونها أيديولوجيا واقعة في شرك توهماتها بخاصة اتجاه شعوب العالم الثالث، فلا الألمان ولا الإنجليز ولا الأمريكي الحر هم متعصبين اتجاه هؤلاء مثلها، ولا بالابتزاز التهديدي للتنوير؛ أي إما قبول التنوير والبقاء في سياق تراثه العقلاني، أو في الهروب من مبادئه العقلانية. بينما الذات كما يقول فوكو امتداد للتنوير، لذا وجب التوجه نحو ما لم يعد مهما لتشكيل ذواتنا، كذوات مستقلة الإرادة. وهو لا يرى مانعا من المزج بين التنوير والنزعة الإنسانية التي وضعت أملها بالعلم لأنها تؤمن بالاختلاف والتعدد وبالتحول، والتي وقفت بالضد للنزعة الإنسانية بوصفها مذهبا معارضا (تركز على القيمي والميتافيزيقي وتعادي العلم) وإذا كانت سلبية هذه النزعة أنها طرية ومتقلبة كما يذكر فوكو فيمكن لجمها بالقانون أي أن يسايرها التنوير. سؤال التنوير يجب أن يعود الى وجهته الإيجابية: إلى ما هو معطى وبوصفه: "كونيا"، وضروريا"، و"إلزاميا"، وأن ما يشغله من المكان هو: الفرد، والطاري الذي يحصل نتيجة إكراهات مستبدة (..) فالنقد لم يعد ممارسة في بحث يتعلق بالبنى الشكلية وعبر قيم كونية، ولكن على العكس من ذلك تماما، فهو، أي النقد سيمارَس بوصفه بحثا تاريخيا في أحداث تقودنا التي تشكيل ذواتنا، والاعتراف بها، كذوات تعمل، وتفكر، وتتكلم. بهذا المعنى فإن النقد سوف لا يكون متعاليا، وهدفه ليس جعل الميتافيزيقا ممكنة: إنه جينالوجيا في تصميمه، وأركيولوجيا في منهجه. فالأركيولوجيا ليست شيئا متعاليا، بمعنى إنها لا تسعى الى تحديد "البنى الكونية" لكل معرفة، أو لكل "الأفعال الأخلاقية "الممكنة، بل تسعى لمعالجة مراحل الخطاب الذي يتمفصل، فيما "نفكر"، وما "نقول"، وما "نعمل" كحدث تاريخي. ينظر ميشيل فوكو، ما التنوير؟، ترجمة كريم الجاف، ص 257 ـ 258ـ 259. وينظر غيرترود هيملفارب (سبتمبر 2009)، الطرق إلى الحداثة.

[10]. صلاح فضل، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، ص127.

[11]. عبد الله الغذامي (2000)، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، بيروت: المركز الثقافي العربي، ص31.

[12]. عبد العزيز برهام (د.ت)، مذاهب النقد ونظرياته في إنجلترا قديما وحديثا، ج1، المكتبة الأنجلو مصرية، ص12.

*. لأنهم تعودوا على الزّيف والغموض أو على قيم الأيديولوجيا، وحجّتنا عن هذا الزيف هي الأخطاء الإملائية والنحوية المرتكبة في جميع الأطوار: الليسانس الماستر والدكتوراه، والتي تمتلئ بها فقط نصوص التسعينيات وبداية الألفية، بينما في العقدين الأخيرين تكاد تخلوا منها، لكن هناك ما يؤشر إلى أن في الأمر زيفا وهو بساطة التركيب والتعبير المتسم بانعدام الأخطاء! ومثل ما هم في زيفهم قد أوكلوا أمر هذه الأخطاء إلى الوورد. مثلما هم أوكلوا أمر فهم الغامض المتعلق بإشكاليات ثقافية منجرّة عن المصطلح والنظرية البنيويين إلى الكذب والتلفيق بالمساومة وتبادل المنافع كعهدهم لأنها متعلقة بهوية مستشعرة للموضوع بصدق، وحتما ثقافة التلفيق هذه ممتدة من أيديولوجيا سياسية ودينية إطلاقيه.

[13]. هانس روبرت ياوس (2004)، جمالية التلقي من أجل تأويل جديد للنص الأدبي، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ط1، ص8.

[14]. شكري محمد عياد، ضيف برنامج "أمسية ثقافية" تلفزيون مصر العربية، بداية الثمانينيات. ينظر أيضا محمد علي الكردي (خريف 1983)، النقد البنيوي بين الأيديولوجيا والنظرية، فصول، المجلد 4، العدد 1، ص144.

[15]. سعيد السريحي (1437/7/20هـ)، "أوهام التلقي للفكر النقدي الحديث " ورقة مقدمة في ندوة المناهج النقدية المعاصرة، الرياض.

[16]. سعد الدين كليب (2005)، النقد العربي الحديث، مناهجه وقضاياه، منشورات جامعة حلب، ص3.

[17]. صلاح فضل (1998)، النظرية البنائية في النقد الأدبي، مصر: دار الشروق، ص 197.

[18]. ولو نظرنا بإمعان من هذه الزاوية الدينية والتي قبلها "الزاوية للا مبالاة إلا بالذات : العنصرية" سنجد فعلا أن البنيوية مثلت قمة تمركز الإنسان الغربي حول ذاته، تمثلت في مركزية صنعت لنفسها قداسة ما، تصنع القرار ولا يُصنع لها قرار، تحتفي بذاتها ولا تحتفي بالآخر، فلو كانت البنيوية علما كونيا لأستغرق التنظير لها قرنا من الزمان أو أكثر بحيث يبحث في خصائص الفكر الإنساني واللغوي من أقصاه إلى أدناه بما في ذلك الشعوب المضطربة الهوية ولا يذوي هكذا بسرعة شاكا في نفسه بمجرد أقل ضربات نقد موجهة إليه، فالفكر البنيوي اكتشف فجأة خطء مبادئه ومرتكزاته العقلية، ويضيف ماهر مسعود في بحثه الموسوم الحداثة وتجلياتها في المنهج النقدي لدى صادق العظم ، ص5 : كان الفكر البنيوي في مجمله محط نقد وانتقاد فلاسفة ما بعد الحداثة من أمثال ميشيل فوكو وجيل دولوز وجاك دريدا وليو تار وبودريار وتوماس كوهن وكارل بوبر وبول فاير باند وغيرهم، وقد انتقد هؤلاء جميعاً المركزية الغربية بما تحمله من مركزيات الإنسان والذات والعقل والدولة والسلطة والقضيب الخ، واعتبروها جميعاً من آثار ميتافيزيقا الحداثة ومنتجاتها، داعين إلى اللاعقلانية والفوضى والتشويش.

[19]. نحن دائما نعنى بالاهتمام بالنقود والدراسات الأكاديمية لأن ترسيمها لواقع مزيف يخص النقد والأدب في الجزائر يكون أشد خطرا / أشد بطلانا فهي تمثل مؤسسات رسمية ولا محيد عنها بالنسبة للقراء عكس المشتغلين بالنقد والأدب في الصحافة ومديريات الثقافة.

[20]. رمضان الصباغ (1997)، الأحكام التقويمية في الجمال والأخلاق، الإسكندرية: دار الوفاء، ط1، ص330.

[21]. محمد بن عبد الله بلعفير (سبتمبر 2018)، البنيوية النشأة والمفهوم مجلة الأندلس للعلوم الإنسانية الاجتماعية، المجلد 16، العدد 15، ص234.

[22]. المدرسة الوجودية فلسفة العبث بلا معنى من ناحية الفن والأدب و الحرية تعلي من ذاتية الإنسان كما يثبت ذلك زعيمها جون بول سارتر: أتقبل البنيوية متى بقيت في حدود المنهج أما إذا تخطت ذلك، فإنها تخطت حدود شرعيتها فالبنيات لا توجد من عدم وإنما هناك من أوجدها ألا وهو الإنسان إذن كيف يمكن القول بثبات البنى والإنسان يخلقها باستمرار. ينظر محمد سبيلا وعبد السلام بن عبد العالي (1996)، الحقيقة، المغرب: دار توبقال للنشر، ط2.

[23]. بول ريكور (1979)، فلسفة اللغة، ترجمة علي مقداد، بيروت: مركز الإنماء القومي، ص24.

[24]. ليونار جاكسون (2008)، بؤس البنيوية الأدب والنظرية البنيوية، ترجمة ثائر ديب، دمشق: دار الفرقد، ص208ـ209.

[25]. صلاح كزارة (2009/02/21)، علم اللغة الحديث بدايات وتطور، شبكة الفصيح، العنوان:
http://www.alfaseeh.com/vb/showthread.php?t=43544

*. يكذب عليك من أنه حينها في بداية الثمانينيات كان المصريون واللبنانيون بالخصوص في حل عما يحدث من تحول مشهود في النظرية النقدية الحديثة، ويكذب عليك من يقول أنهم تريثوا لعدم إلمامهم باللغة الفرنسية، أبدا هذا كذب وتلفيق، كان لديهم باحثين في فرنسا ومترجمين من الفرنسية عديدون لكنهم تريثوا لأن لديهم جبل من التراث السردي والأدبي والنقدي متراكم من النهضة ومن قبل النهضة فلابد من مشاورته وأخذ رأيه قبل الهرولة إلى زمام المبادرة اتجاه تلكم المناهج التي أضحت مرادفا لعلمنة الأدب، ليكون شأنه شأن علوم المادة هكذا بتهور وبطفرة عين كما حدث مع المغاربة. للاستزادة من هذا الموضوع الذي هو إشكالية النقد البنيوي في الجزائر يرجى اللجوء إلى أبحاثنا الأخرى المتوفرة عبر الشبكة العنكبوتية.

(26). ديفيد بشبندر (1996)، نظرية الأدب المعاصر وقراءة الشعر، ترجمة عبد المقصود عبد الكريم، القاهرة : الهيئة العامة للكتاب، ص56-59.

(27). محمود أمين العالم (1985)، ثلاثية الرفض والهزيمة، دار المستقبل العربي، القاهرة، ط1، ص11.

(28) . الزواوي بغورة (2001)، المنهج البنيوي بحث في الأصول والتطبيقات، عين مليلة: دار الهدى، ط1، ص45.

(29) . ليونار جاكسون (2008)، بؤس البنيوية الأدب والنظرية البنيوية، ص211.

(30) . صلاح فضل (2002)، مناهج النقد المعاصر، القاهرة: ميريت للنشر والتوزيع، ط1، ص17.

(31) . "**.. وليس غريب أن تترسخ النرجسية الذاتية بوجهيها النقيضين: عبادة الذات والعدو انية على الآخر (..) ولكن ما هو أهم هو منهج العقل في تعامله مع الذات ومع الآخر، أي التزامه منهجا نقديا إزاء فكر الذات والآخر لكي يكون الحصاد دعامة تطوير للفكر وللفعل الغربيين (..) ذلك أن الفريضة الغائبة في حياتنا يجسدها غياب العقل النقدي وغياب قراءة الآخر كمرآة عاكسة لحالة الذات..**" جي جي لارك (ديسمبر 2007)، التنوير الآتي من الشرق، عالم المعرفة، العدد 346، ص9.

(32). كمال بومنير (2010)، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، الجزائر: منشورات الاختلاف، ط1، ص9.

(33). ليونار جاكسون (2008)، بؤس البنيوية الأدب والنظرية البنيوية، ص13.

(34) . محمد علي الكردي، النقد البنيوي بين الأيديولوجيا والنظرية، ص144.

(35). عبد العزيز حمودة (أبريل 1998)، المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك، عالم الفكر، العدد 232، ص14.

(36) . المرجع نفسه، ص14.

## Abstract in English

## Constructivism in the contemporary Algerian academic literary critical scene, Read about the goals and assets.

**Bouziane Baghloul**: Freelance critic specializing in cultural and stylistic criticism, From Algeria.

**Abstract**: This article, approaching the scientific article, seeks to search for convincing answers to the following question: Why do most of the critical research on the analysis and study of the Algerian literary product, whether it is academic research - including graduation notes - or independent research, go to the structural approach? That curriculum that was chosen Arab and Western in the seventies and eighties of the last century, a time that began to fall out gradually from the interests of Western thought, followed by Arab thought in the Arab Mashreq, especially in the field of specialization that we are dealing with, i.e., literary criticism, giving way to post-structural approaches such as deconstruction, hermeneutics and even the semiotic branch the so-called semiotics of culture. However, a media statistical study that I recently reviewed confirms that structuralism is still in quantitative terms dominating the literary criticism scene in Algeria, not only that, but from my coincidences with many theoretical and applied critical studies of academic structuralism through electronic media whose owners are Algerians or Moroccans. So, what is the real reason?

**Keywords**: structuralism, objectivity-subjectivity, creativity, rationality, materialism.